

القسم الأول

العقلانية التربوية عند ابن رشد

مثل التاريخ الحضارى لأمة من الأمم مثل تاريخ أى فرد منا فى زاوية من الزوايا ألا وهى الاستمرارية ، وتأثير ما أدر على ما يلحق ، ومن هنا فقد أصبح من المسلم به أن ما يخبره الإنسان فى مرحلة طفولته له أثره بالضرورة على مرحلة مراهقته وشبابه ، مما أصبح معه من الضرورى الوعى بأن انقضاء مرحلة من عمر الأمة الحضارى لا يعنى أنها اندثرت تماما وألقى بها فى زوايا النسيان . والنتيجة المنطقية لهذا أن يخضع الموروث دائما للبحث والفحص والدرس .

السؤال الحصرى إلى كرتجه ينسحب فيها الدارس إليها منوها إمكان استحصارها فى عالمه المعاصر ، فيحدث له انقطاع مؤسف مع حاضره ، مما يزيد فى حالة التخلف . وتأثيرهما هو موقف الازدراء والتجاهل لما مضى ، فيحدث انقطاع من نوع آخر يجعل صاحب هذا الموقف يعانى من تبعية فكرية للنموذج الحضارى القائم مهما تباين وناقض - فى بعض الأحوال - المصالح القومية ، والذات الحضارية .

ومن هنا فإن الدراسة التحليلية لصفحة مشرقة من موروثنا العلقى التربوى خطوة مهمة تستحق العناية والاهتمام من الباحثين .

وأيا كان الموقف ، فإننا يمكن أن نجد الموروث التربوى فى عصور الحضارة الإسلامية المختلفة فى مصادر متعددة :

- فهناك من كتبوا فى القضايا التربوية بصورة مباشرة ، ولهم من الكتب والدراسات ما تجد فيه الكتاب من أوله إلى آخره لا يبرح الدار التربوية ، ومثالنا على ذلك كل من " ابن سحنون " فى رسالته (آداب المعلمين) و" القابسى " فى (الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين) ، و (تعليم المتعلم) "للزرنوجى" .

وهذه النوعية من الكتابات يغلب عليها التوجه إلى الإرشاد العملى والتوجيه التربوى ، وضعف التظليل بالنسبة للقضايا الجدلية ، ومعظم منتجى هذا النوع من الكتابات هم من الفقهاء الذين كانوا يواجهون تساؤلات الناس فى قضايا المعاملات ، ومنها ما يتصل بالضرورة بالتعليم .

- وهناك فلاسفة كتبوا فى المسائل الفلسفية ، وكذلك فى المسائل التربوية معا ، كما نرى عند ابن سينا على سبيل المثال ، وأبى حامد الغزالى .

ومثل هؤلاء قد لا ينشغلون بالتنظير التربوي فيما يتناولوه من المسائل التربوية ، لكن الباحث يحاول أن يبحث عما بين النظرات الفلسفية والنظرات التربوية من علاقات ، على أساس أن عمالقة الفكر عادة ما يتسم فكرهم بالاتساق المنطقي بين ما ينتجوه من أفكار وآراء ، كما نجد عند أفلاطون ، ففكره التربوي المبتوث في (الجمهورية) ينطلق من نظريته في المعرفة .

- وهناك فلاسفة خالص ، لم يقصدوا أن يكتبوا في مسائل تربوية ، مثل الكندي ، والمعتزلة ، لكن الباحث التربوي يلجأ هنا إلى ما يشبه عملية " التوليد " ، القائمة على الاستنباط ، فينشغل بما درج عليه الباحثون من استخدام عبارة " التطبيق التربوي " ليلحقها بآراء هذا أو ذلك من كتابات هذا النفر من الفلاسفة الخالص ، ومثال ذلك ما نراه لدى الكندي في رسالته إلى المعتصم في الفلسفة الأولى ، وكيف يلح فيها على الاستفادة من الآخر الفكري ، وتقدير من يهدينا إلى الحق أيا كانت ملته ، فمثل هذا أمر على جانب كبير في التنشئة التربوية ، وكذلك نجد ما نجده لدى المعتزلة من إلحاح على حرية الإرادة الإنسانية ، إذ لا شك في أن لهذا مردوده في تربية الإنسان .

ومثل هذا المجال محفوف بالمخاطر البحثية ، فكتيرا ما تتدخل " الذات الباحثة " في التفسير والتأويل والاستنباط ، والقيام بعمليات إسقاط من الحاضر على الماضي ، بحيث نجد في النهاية أن الفيلسوف موضوع البحث قد " قُول " - بتشديد الواو - ما لم يقل . وأذكر بهذه المناسبة أن " الوضعية المنطقية " في سنواتها الأولى ، كانت تركز جهدها كله في إرساء أسس منهجها الفلسفي القائم على التحليل المنطقي البحت ، مما جعلهم - على غير ما تعود عليه مختلف الفلاسفة في كافة العصور - لا يحفلون بإبداء وجهة نظر في المسائل المتصلة بعالم القيم خاصة ، ذلك العالم الذي هو الأرض الحقيقية للعملية التربوية .

لكن زميلا باحثا في أوائل الستينيات أراد أن يستثمر منهج التأويل والاستنباط ، فقدم رسالة للمجستير لكلية التربية عن النظرية الأخلاقية عند الوضعية المنطقية وتطبيقاتها التربوية ، ومن سوء حظه - ولو أردنا الدقة فإن هذا كان على العكس من ذلك ، أي من حسن حظه ، من حيث فرصة التعليم وتصويب التفكير - فقد كان الراحل العظيم زكي نجيب محمود ، أحد المناقشين ، فاستنكر بشدة أن تكون للوضعية المنطقية نظرية أخلاقية ، ذلك لأنها تنكر هذا المبحث على الفلسفة على أساس قيامه على الذوق الخاص والتقييم الشخصي .

لكن التحولات التي شهدتها الوضعية المنطقية ، حتى أصبحت تسمى الآن بالتحليلية ، وما أحرزته من ثراء معرفي فلسفي أغرى عددا من معتقبيها أن يطبقوا منهجها في

التحليل على المسائل التربوية ، وعرف عدد غير قليل فى عصرنا الحاضر بفلاسفة التربية التحليلية ، وأنجزت فيها بالفعل رسائل دكتوراه وماجستير .
ومع ذلك فإن أستاذنا الجليل فؤد زكريا رفض أن أضمن كتابى فى سلسلة عالم المعرفة (فلسفات تربوية معاصرة) فصلا عن التربية التحليلية ، على أساس النظرة السابقة ، من أن هذه الفلسفة لا جهد تربوى لها ، وأنا معشر التربويين مغرمون بمحاولة استخراج آراء ونظرات تربوية - تعسفا - من فلسفات ومذاهب لا علاقة لها بالتربية .

وعلى أية حال ، فيمكن القول بأن فيلسوف قرطبة الشهير (ابن رشد) هو واحد من هذه الفئة الثالثة التى قد لا نجد لديها كتابات مباشرة فى المسائل التربوية ، لكننا نجد فى فكره من الثراء العقلى ما يجذب الباحث التربوى للسعى إلى الاستفادة منه .

ولو لم يوفر ابن رشد لأهل النظر التربوى غير هذا البعد المنهجى الذى فصله فى كتابه الصغير حجما الكبير قيمة وأثرا (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) لكفاه هذا معينا للفكر التربوى كى يستقيم على الطريق فى النظر الذى ينطلق من الشريعة بمنظور عقلى ، إذ أن الفكر التربوى مهما تعددت قضاياها ومسائله ، تبقى قضية منهج التفكير هى القضية المركزية فى عملية التنشئة والتربية ، ولو أشرت إلى أى قضية أو مشكلة مما يحفل بها مجال التعليم فى أى مجتمع ، وفى أى عصر ، فسوف نؤكد لك أن الجذر لها هو منهج التفكير . بل إننا لا نغالى فى كثير أو فى قليل إذا قلنا أن هذا أيضا هو الشأن فى مجالات الحياة البشرية كافة .

لكنها تبقى ، بالنسبة للعملية التربوية بصفة خاصة هى المسألة الأجدر بالعناية ، والقضية الأجدر بالاشتغال بها ، خاصة أن هذه العملية تبدأ مع بدء الوعى والإدراك لدى الإنسان إلى أن يتوفاه الله .

وإذا كانت قضية التعارض الظاهر فى بعض المسائل بين العقل والدين قد ألحت على ابن رشد فى هذا الزمن البعيد الذى فارقنا منذ قرون (١١٢٦-١١٩٨م) ، فمن المفروض أن نلح عليها نحن أكثر فى زماننا هذا الذى أفلنت فيه القيادة الحضارية من أدينا وصارت ، ومنذ أكثر من خمسة قرون ، فى أيدي غيرنا ممن يتناقضون معنا فى الكثير من الأمور ، الأمر الذى ملأ ساحة الفكر والحياة بكم من المشكلات والقضايا التى جعلت كثيرين يعانون من خلط الأوراق ، وتعرض إلى ما يشبه الإعصار تحت أسماء شتى فضلا عن اضطراب النظر الصحيح بين الحياة الدنيوية والدينية ، وفقا للقاعدة المعروفة أن النصوص تنتهى بينما الوقائع لا تنتهى .

وفى ساحة التعليم بصفة خاصة ، شتان بين الموقف الذى كان عليه أيام ابن رشد والموقف الحالى . . . لقد كاتت التربية أقرب إلى أن تكون مجرد نصح وإرشاد ، تكاد أن تقف عند حدود (الآداب الأخلاقية) والنصائح التى يلقيها الكبار على الصغار ، وكاتت مجرد (فن) لا يحتاج إلا إلى خبرة وممارسة ، بينما أصبحت الآن (علما) - بجوار كونها فنا - ، بل علوما متعددة ألقت فيها مئات الألوف من الكتب بمختلف لغات العالم ، فماذا نقبل من هذا وذاك ؟ وماذا نرفض ؟

هنا يجئ المنهج " الرشدى " ليزودنا بالأداة ، بالآلة التى نبصر بها معالم الطريق . . . فالحقيقة عنده واحدة ، وظواهر النصوص التى توهم خلاف الحقائق الفلسفية ، إنما قصد بها - فيما يشرح محمد عمارة - تبسيط الأمور لمستويات من الناس لا تطبيق الحقائق الفلسفية ، ولا تجيد صناعة الفلسفة ، وقد تدخل هذه الظواهر النصوبية فى باب " الرموز " التى لا تتراد لظاهر دلالاتها ، وإنما يؤتى بها لتبنيه الراسخين فى العلم على ما فى باطنها من حقائق ودلالات .

وابن رشد ينص على ذلك بقوله : " . . . ونحن نقطع قطعا أن كل ما أدى إليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع ، أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربى ، وهذه القضية لا يشك فيها مسلم ولا يرتاب بها مؤمن . . . فإننا معشر المسلمين نعلم على القطع أنه لا يؤدى النظر البرهانى إلى مخالفة ما ورد به الشرع ، فإن الحق لا يضاد الحق ، بل يوافقه ويشهد له " .

وهو بهذا يرى أن المعارف التى قد يكشف عنها النظر البرهانى ، إما أن تمت إلى ما قد سكت عنه الشرع (أى الكتاب والاسنة) أو ما صرح به ، فإذا كان قد سكت عنه ، فلا إشكال فى الأمر ، إذ شأنه فى ذلك شأن الأحكام الفقهية التى لم يتطرق إليها الشرع وإنما استنبطت بالقياس الشرعى . وإذا كان قد صرح به ، فإما أن يكون مما يتفق مع ما يفضى إليه البرهان أو لا يتفق ، فإذا لم يتفق ، تحتم تأويله ، " إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب فى التجوز من تسمية الشئ بشبيهه ، أو بسببه ، أو لاحقه ، أو مقارنه ، أو غير ذلك من الأثنياء التى عُددت فى تعريف أصناف الكلام المجازى " ، وهو تعريف التأويل عند مفكرنا ؛ وحجته على جواز ذلك أن الفقهاء يعتمدونه فى الكثير من الأحكام الشرعية ، فكيف بصاحب العلم بالبرهان (أو الفيلسوف) !؟

ومن هذا المنظور يصبح الهدف الأكبر للعمل التربوى هو : " تعليم العلم الحق ، والعمل الحق " ، وهى عبارة ، كما نرى غاية فى الإيجاز ، كما أنها فى الوقت نفسه تكاد تجمع العديد مما يستهدفه المربون من العملية التربوية ، ولو جمعت العديد من الأهداف

التربوية ، فسوف تجد أننا يمكن أن نصنفها بين هاتين الفئتين : " العلم الحق " و " العمل الحق " .

والعلم الحق هنا هو معرفة الله تبارك وتعالى ، وسائر الموجودات على ما هي عليه ، وبخاصة الشريفة منها ومعرفة السعادة الأخروية والشقاء الأخرى (ويهتم بهذا العلم العلماء المتخصصون) . والعمل الحق هو امتثال الأفعال التي تفيد السعادة وتجنب الأفعال التي تفيد الشقاء . والمعرفة بهذه الأفعال هي التي تسمى " العلم العملى " (ويهتم بهذا العلم جميع الناس العلماء المتخصصون وعامة المتعلمين الجمهور) .

ولعلنا لو تأملنا قول الله عز وجل فى سورة الجمعة (آية ٢) ، للمسنا أن هذا الهدف الذى حدده ابن رشد يتسقى إلى حد كبير مع مضمونها الذى ينص على : (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) ، فتعليم آيات الله ، هو تعليم للكتاب ، والكتاب هنا له صورتان ، كتاب الله المشهود ، وهو هذا الكون الفسيح الذى نعيشه ، وكتاب الله المسطور ، وهو القرآن الكريم . أما تزكيتهم ، فتعليم للحكمة ، حيث أن الحكمة - فى أغلب الأقوال - هى الإصباة فى القول والعمل .

وليس مطلوباً من فلسفة التربية أن تفصل هذا الهدف وذلك (تعليم الحق) ، و (العمل الحق) ، وإلا ضيقت على الناس ، فالناس مختلفون زماناً ومكاناً ، فى تحديد مضمون كلا الهدفين ، وعلى سبيل المثال ، فقد كان من تعليم الحق ألا يأخذ المعلم أجراً على قيامه بواجب تعليم الغير ، لأن موضوع التعليم كان هو القرآن الكريم فى سنوات الإسلام الأولى مما كان يدخل فى باب " الفريضة " التى لا ينبغى أن ينتظر عليها المعلم أجراً ، لكن موضوع التعليم اتسع بعد ذلك كما نعرف ، فضلاً عن اتساع دائرة الاحتياجات المعيشية مما جعل تناول الأجر ضرورياً . وكان من " العمل الحق " - كما ألج القابسى على ذلك - أن يلقى التلميذ بلسانه ما كتب على اللوح أو يمسحه بطرف ثوبه ، حيث كان الكلام المتعلم هو كتاب الله ، وغياب تام للعلم بالجراثيم ، ولم يعد الآن هذا من العمل الحق لأسباب معروفة وهكذا .

ويخطئ البعض فى تفسير مناداة ابن رشد بالترفة فى التعليم بين الناس وفقاً لدائرتى " الظاهر " و " الباطن " من الشرع ، زعماً بأن مثل هذه التفرقة تنبع من نظر طبقى ، ذلك لأن أساس التفرقة هنا ليس اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً ، وإنما هو وفقاً للقدرات العقلية والاستعدادات الفطرية ، وهو ما تؤكد الدراسات النفسية المعاصرة من حيث تنوع التعليم ومستوياته وفقاً لما يكون عليه المتعلمون من تباين واختلاف فى القدرات .

فالظاهر ، هو ما يلتزم به عامة الناس ، وهو ما يجب أن يعرفوه ويتعلموه أولاً . إنه ما تتضمنه " الآيات المحكمات " ، ولو وسعنا دائرة التأويل ، لنشبهنا ذلك بمرحلة التعليم العام ، التي يجب أن يحصل الجميع فيها على جملة المعارف والمهارات والقيم التي توصلت إليها الإنسانية على وجه العموم والأمة على وجه الخصوص . أما " الباطن " ، فهو الذى يستدعى النظر والتأويل ، فهذا شأن العلماء ، وهو ما يشبهه فى عالمنا المعاصر المعارف المتقدمة والعلوم العالية .

والسبب فى ورود الظاهر والباطن هو اختلاف فطر الناس وتباين قرائحهم فى التصديق ، والسبب فى ورود الظواهر المتعارضة فيه هو تنبيه الراسخين فى العلم على التأويل الجامع بينها ، وفى هذا يقول المولى عز وجل : (هو الذى أنزل عليك الكتاب فيه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون ءأما به كل من عند ربنا وما يذكر إلى أولوا الأبواب) آل عمران / ٧

ولا يتسع المقام للإشارة إلى جملة الإفادات التى يقدمها ابن رشد من خلال نظره المنهجى إلى الفكر التربوى ، ويكفيها التأكيد على أن فكرنا التربوى بأمس الحاجة إلى العكوف على مثل هذا النظر لاستنباط مضامين تربوية له ، خاصة وأن هذا الفكر يعانى أزمة صارخة نتيجة هذا الموقف " اللامتعين " بين الجماهرة الكبرى من المشتغلين به ، ما بين فئة تستدمج نفسها فى الموروث التربوى لأمتنا كما هو ، دون نظر نقدى فاحص يقوم على الإيمان والعقلانية ، ويكتفون بالوقوف أمامه موقف التقديس بغير وعى ، وجل ما يقومون به تحت زعم " التحديث " ما يشبه عملية خلع العمامة من على الرأس ووضع قبعة بدلا منها ، ويظل ما بداخل الرأس كما هو ، وبين فئة أخرى تخصم هذا الموروث ، لمنصقة به كل رذيلة وسبب للتخلف ، لا ترى جديرا بالاهتمام الفكرى إلا ما يقوله هذا وذاك من مفكرى الغرب ، سواء فى الحقبة الاشتراكية ، أو فى الحقبة الرأسمالية المعاصرة ، وعندما يشتد النقد لهم فى مخاصمتهم للذات الثقافية للأمة يعمدون إلى " الاصطياد " للنصوص والوقائع ، مع التوسع المتطرف فى التأويل ، وكأن هذا المفكر أو ذاك يعيش بين ظهرانينا فى وقتنا الحالى !

* الأهرام ، فى ١١/٨/٢٠٠٢

يريدون اغتيال عقولنا

ليست القصة جديدة مبتكرة ، فقد شهدناها وعشناها من قبل عشرات السنين ، فى مصر ، وفى الكثرة الغالبة من البلدان العربية والإسلامية ، لكنها هذه المرة ، وفقا لنسبة التقدم العلمى والتقنى ، تفوق سابقتها شدة وضراوة ، خبثًا ومكرًا . صررا وتخريبا . . .

كانت أبرز مظاهر القصة فى صورها السابقة ، ما شهدته أرض الجزائر ، لا من هدم الغزاة الفرنسيين للمباني ، ، ولا من امتصاص لخيرات البلاد ، ولا من احتلال للأرض ، ولكن ما فعلوه تخريبيا للنفوس ، واحتلالا للعقول ، وغزوا للقلوب ، وسطوة على الثقافة ولم يفعل الإنجليز فى مصر ما فعله الفرنسيون فى الجزائر ، لا لأنهم أكثر من رحمة وتعقلا ، ولكن لأنهم ركزوا أكثر فى تلك الأرض التى كانت تشكل النصف الثانى من الحياة فى مصر . . فى السودان ، التى ما زالت تعانى حتى الآن من فعلهم التخريبى ، كما يتبدى على أرض جنوب السودان . .

وإن تساءلت : وكيف يتأتى لهم ذلك ؟ وبأى سلاح ؟ قلنا على الفور : بالتعليم !
وأذا سألت : وهل يشكل التعليم كل هذه القوة السحرية ؟

قلنا : أليس التعليم هو عملية صياغة العقول والاتجاهات والقيم والميول والمهارات ؟ لقد شاع لدى كثيرين أن التعليم يكاد أن يكون مصباح علاء الدين السحرى الذى عن طريقه يمكن أن تطور المجتمع ، ونحدث انقلابا جذريا فى التكوين الاجتماعى والتكوين الشخصى .

ارجع بذاكرتك إلى العهد الأول من الرسالة الإسلامية ، وتأمل : كيف تمت عملية خلق شخصيات جديدة تماما أرست دعائم أعظم تغيير حضارى فى التاريخ ؟ إنها تربية القرآن وطريقة المعلم الأول رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لكن ، مثلما يمكن للتعليم أن يكون يمثل هذه القوة أداة للبناء والتغيير والتطوير ، يمكن - وبكل الاسف وكل الأسى ، أن يكون كذلك أداة تخريب وتدمير ! كيف ؟

عندما يكون أمره بأيدي أعداء الأمة ، لا من الخارج فقط ، ولكن أيضا أعداءها الداخليون !

فماذا يريد أن يفعل الأسياد الجدد فىنا هذه الأيام ومستقبلها ؟

رحبنا بصدافتهم منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية على أساس أن أيديهم مبرأة من دماء الغزو العسكرى للشعوب ، على عكس ما كانت عليه أيادى انجلترا وفرنسا وإيطاليا وهولندا ، ونسينا أن بداية وجودهم فى الحياة ، وأن محور دولتهم ، كان الاغتيال الكامل

لشعب (الهنود الحمر) وسرقة لا مثيل لها فى التاريخ ، سرقة ما يقرب من نصف قارة أمريكا الشمالية أقاموا عليها (الولايات) الأمريكية المتحدة ، كما أسميناها قبلا وعلى الرغم مما يمكن أن نسجله من سلبيات وأخطاء لثورة يوليو ، فإن أعظم ما تبنى فى شخصية عبد الناصر ، أنه تنبه إلى ما تمثله أمريكا من خطر داهم على المنطقة وعلى شعوبها ، فدخل معها فى معارك ضارية ، لكنها استطاعت ، أن تغتاله ، وتقتال معه كثيرا من مشروعات تحرير الشعوب من الاستعمار الجديد ، لتستمر مسيرتها الشيطانية فى الغلو والتطرف فى السطوة والاستكبار والاستغلال والظغيان .

لا نريد أن نستطرد فى تتبع السجل الأسود للدولة العدو الأكبر . أمريكا ، ولنتوقف أمام آخر صحبات " الشيطنة " والاستكبار التى تسعى إلى ممارستها معنا .

ملخص تقرير وضعته مجموعة تسمى مجموعة ال (١٩) لتغيير مناهج التعليم وفلسفته فى البلدان العربية والإسلامية ، وخاصة مصر والسعودية على أساس أنهما - هكذا زعموا - منبع الإرهاب ! ونشر هذا الملخص مصطفى بكرى فى صحيفة " الأسبوع " فى ١٢/٢/ ٢٠٠٢ ، ثم أتبعه بملخص مذكرة مشابهة وضعها وزير خارجية أمريكا كولن باول ، فى الصحيفة نفسها ، فى الثالث والعشرين من الشهر نفسه .

يركز التقرير على هذا التصور المختل الذى تصوره عن مفهوم الجهاد فى الإسلام ، على أساس أنه ركيزة أساسية فى مناهج التعليم الدينى التى يرون ضرورة تغييرها ، فقد زعموا أن هذا الجهاد يبيث فى قلوب المسلمين الكراهية للآخرين ، بل ويحرضهم على إفنائهم وقتلهم ، ويسوق مثلا على ذلك ما يحدث على الأرض الفلسطينية من عمليات استشهادية ، ويصف هذا كما هو معروف بأنه عمل إرهابى !

لا نريد أن نستطرد فى شرح حقيقة مفهوم الجهاد فى الإسلام ، فذلك يحتاج إلى صفحات عديدة ، فضلا عن توافره فى كثير من المصادر والمراجع ، وإنما يكفى أن الجهاد فى الإسلام مقرون دائما ب " فى سبيل الله " ، ومن ثم لا يكون الجهاد جهادا إذا كان يبتغى جاها أو مالا أو سطوة ، أو نفوذا ، وتحليل " فى سبيل الله " إلى عناصرها ، يقتضى الإشارة إلى كل ما أمر به الله أن يكون ، وما نهى عنه أن يكون .

وليس من سبيل الله موالاة دولة البغى والاستكبار بأى صورة من الصور . . .

وليس من سبيل الله أن يسكت أصحاب أرض على احتلال أرضهم . . .

فالجهاد هو تلك الجهود الدنوية لتمكين شريعة الله على الأرض ، والوسائل إلى ذلك متعددة ، أعلاها مقاما بالفعل هى التى تشير إليها الآية ٩٥ (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ٠٠) النساء .

وأبطال فلسطين إذ يفنون أنفسهم فعنى ذلك أنهم يعلون أرضهم ووطنهم ودينهم
وجماعتهم ومستقبلهم وكرامتهم على أنفسهم ، وتلك أسمى درجات الجهاد والكفاح !
لكن هؤلاء المستكبرين ، الذين حصلوا على وطنهم بالسرقة والبنادق والبارود
••••• بالقتل والاحتلال ، فأصبحوا يعبدون المال والقوة المسلحة ، يصعب عليهم تقبل هذا
الفهم ••••• إن الفرد منهم يمكن أن يبيع أباه وأمه إذا كان ذلك سيجلب له نفعاً أكبر ،
أليست البراجماتية فلسفتهم وكتابهم المقدس ؟ أولم يعبر وليم جيمس ، أحد الزعماء
المؤسسين للبرجماتية عن ذلك بأن المقارنة بين فكرتين لاختيار إحداهما لا بد أن تستند
إلى معيار وحيد هو " المنفعة " ؟ ! ثم •••••

أو لا يقرأ المسلم فى القرآن العظيم ، قول المولى سبحانه وتعالى : (من قتل نفسا
بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا) المائدة / ٣٢ ؟ أى تكريم
للإنسان يمكن أن يصل إلى هذه المرتبة ، عندما تصل نفس إنسان واحد إلى ما يساوى
أنفس كل من فى الدنيا ؟

حقا ، يبدو أن على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا !!

المصيبة الكبرى التى يحمل التقرير نذرها ، هى ما أشار إليه من اعتماده على "
المرجعيات الدينية " فى بلداننا لتغييب مفهوم الجهاد كما هو شائع فى الثقافة الإسلامية
عبر قرون ، وتسييد مفهوم آخر يرضى عنه الأسياد الجدد ••••• إنهم وبكل صفاقة
وبجاجة يقولون أن " تغيير القرآن " أمر صعب عمليا أن يطلبوه من الحكومات ، لكن
هناك مخرج مهم ، ألا وهو " التفسير " ، و " التأويل " •••••

الباب الذى فتحه الله لنا لنعمل عقولنا وننمى تفكيرنا ونجتهد ونختلف ونتحاور ،
يريد شياطين الإنس أن يستغلوه هذا الاستغلال البشع المنكر ، لتمرير ما يريدون من
مفاهيم ومعانى واتجاهات !!

والمفاجأة التى تدهش القارئ حقا هى تشديد التقرير على ضرورة إلزام أصحاب
المراجع والمسئوليات الدينية بالتركيز على الفروع المتعلقة بالطقوس الدينية والعبادات
والعمل على أن يظل دور الدين محصورا فى العلاقة بين الفرد وربّه دون أن يتطرق
الأمر إلى أكثر من ذلك ، ، مع السعى إلى إبعاد المسلمين عن أى دور حضارى أو
سياسى أو نضالى •

وجه المفاجأة هنا أن هذا بالضبط ما يسعى - منذ زمن - نفر من أبناء جلدتنا إلى
التأكيد عليه ، منهم مسئولون ، ومنهم كتاب ومثقفون ، ولو تتبع سامع أو قارئ ما
يذاع عبر أجهزة إعلامنا المسموعة والمشاهدة ، فسوف يلمس إلى أى حد يتم تنفيذ هذا

، من قبل أحداث سبتمبر بسنوات ، وبغير توجيهات " الولايات " الأمريكية ، لماذا ؟ لأننا كنا الأسبق في معاناة خطر الإرهاب .

فعلی الرغم من محاولاتنا الآن أن نصرخ في أمريكا لنؤكد لها أن هناك فرقاً كبيراً بين وجود دعاة عنف من المسلمين ، وبين حقيقة الدين الإسلامي ، وأن فعل هؤلاء لا ينبغي أن ينصرف إلى الدين نفسه فيدمغ بالإرهاب ، إلا أننا - عملياً - فعلنا شيئاً مشابهاً لما تفعله أمريكا الآن ، لم نحصر حربنا على القلة الباغية من أصحاب نهج العنف ، فإذا بنا نحاصر كل من تبين أنه يرى في الإسلام نهجاً حياتياً ، وإذا نطقت شواهد عدة بأن مثل هذا النفر بعيد تماماً عن العنف ، قيل أنها " تقية " ، وأن العملية عملية توزيع أدوار ، ولابد من قطع جذور الاتجاه أياً كان لونه ونهجه ، فيما عرف بسياسة " تجفيف الينابيع " .

وتطبيقاً عملياً لهذا فلو دقت جيداً في النهج العام لخطب الجمعة ، فسوف تجد الخطيب يركز على مسائل أخلاقية عامة ، لا بأس بها بطبيعة الحال فهي هامة وضرورية ، لكن الحديث عن القضايا المجتمعية والثقافية والاقتصادية والسياسية في ضوء القرآن والسنة والمذاهب الفقهية ، فهذا أصبح غائباً ، ومن ثم يصبح النطلب بالفعل أن يكتفى المسلم بأداء شعائر الدين من صلاة وصيام وزكاة وحج ، ومجرد التلاوة الحرفية للقرآن وأحداث النبي صلى الله عليه وسلم .

أما التفكير والبحث عن العوامل التي أدت بالمسلمين إلى التخلف ؟ وكيف يمكن تجاوز التخلف ؟ ، أما التساؤل النقدي عن الممارسات الديمقراطية في البلدان الإسلامية ؟ أما التساؤل عن سبل التنمية الاقتصادية وفق منهج الإسلام ؟ إلخ ، فهذه مناطق تكاد أن تكون محظورة ، ما عدا الكتب ، فهذه ما زال مسموحاً بها حتى كتابة هذه السطور ، لكن في المساجد ، وأجهزة الإعلام ، ومؤسسات التعليم ، فالحديث في مثل هذه القضايا يعد " تفرخاً " للإرهاب وتغذية له !

هل جاوزنا الحقيقة إننا إذا قلنا أننا نفذنا التوجيه الأمريكي من قبل أن ينقل إلينا بسنوات؟

لكن ما مغزى هذا التوافق ؟ أرجو أن يعفني القارئ من أن أثقل عليه بمزيد من التفسير فتكتي بذكائه تجعلني أكتفي بالتلميح والإشارة !
ثم نأتى إلى كارثة أخرى مقبلة ...

فالسادة الجدد سوف " ينصحون " أولاً ، فإن لم ننصح ، فسوف يضغطون ، فإن لم نضغط فسوف يكثرون عن أتيابهم ، من أجل ماذا ؟ وفي أي مرحلة ؟

فى مرحلة التأسيس لتكوين الشخصية ، فى مرحلة التكوين الأولى للتفكير ، فى
مرحلة التشكيل الرئيسى للاتجاهات والميول . . . فى مرحلة التعليم الابتدائى ، لا ضرورة
للتعليم الدينى الإسلامى !!

أى والله ، وإلا فما معنى ما يروونه من ألا ينقسم الطلاب ليتعلم كل فريق التربية
الدينية الخاصة بعقيدته ، مسلما أو مسيحيا ، وبدلا من ذلك يكون هناك مقرر بعنوان (
الثقافة الدينية) يكون الهدف منه تقديم صور إيجابية عن الفضائل الأساسية للأديان
الثلاثة ؟ وألا يقتصر الأمر على مادة (الدين) بل يمتد إلى مقررات اللغة العربية ، لأن
فى هذه المادة هناك (المطالعة) أو القراءة ، يمكن أن تغلت منه موضوعات إسلامية !!
ألا يعلم هؤلاء أن إسلام المسلم لا يكتمل إلا إذا آمن " بالله ورسله وكتبه " ، بما يعنى
أن المسلم يجل ويحترم ويعترف بما جاء به موسى وعيسى عنيهما السلام ؟ ، لكن غير
المسلمين لا يؤمنون بالإسلام ، فكيف يستقيم هذا وينفذ ؟

إن التعايش بسلام ومحبة بين المسلمين وغيرهم أمر لا يمكن إنكار ضرورته ، لكن
هذا يمكن أن يتم من خلال قنوات ووسائط عدة . . . فى الإعلام ، فى الأسرة ، فى الثقافة
العامية ، من خلال مقررات مثل التاريخ والجغرافيا . . . وهكذا ، أما أن يكون هذا مؤديا
إلى إلغاء تعليم الدين الإسلامى ، فإِنَّ التفريط فى ذلك يعنى الكثير مما أمسك قلعى
ولساتى عن الإشارة إليه ، ونرجو أن نسمع رأى قيادات الأزهر فى هذا ، وألا ينتظروا
حتى تقع الكارثة .

إن كتب المطائعة فى رأى التقرير الأمريكى تحض الطلاب على كراهية الآخرين ،
وتصور العربى بصورة المقاتل الشرس ، وتحض الأطفال على تذكر تاريخهم الدموى فى
الحروب ضد الآخرين !!

هل رأيت كذبا وافتئاتا أكثر من هذا ؟ من هم أصحاب التاريخ الدموى ؟
اقرأ آلاف الصفحات عما فعله الإنجليز بمئات الملايين فى الهند ومصر والعراق
والسودان وفلسطين ، عبر عشرات السنين من قتل ونهب واستغلال . . . وكذلك ما فعله
الفرنسيون بالمغرب والجزائر وتونس وسوريا ولبنان . . . وما فعله الهولنديون فى
إندونيسيا . . .

كم مليون من البشر قتلوا ؟ كم مليار من الدولارات نهبت ؟ كم ألف من كيلومترات
الأرض اغتصبت ؟

ليس هذا تاريخا دمويا ، لكن الذين فتحوا البلدان لينشروا دين التوحيد والإعمار
والسلام ، هم أصحاب التاريخ الدموى !!

ثم تصل الصفاقة إلى الجهر بالنوايا الشيطانية ، حيث يعلنون أنهم سوف يحذفون من تعليمنا كل ما يثار من موضوعات أو نصوص أدبية وتاريخية هدفها بث الكراهية تجاه الغرب ، وكل ما هو أمريكي وأوربي ، أو حتى ما يخص دول الجوار (طبعا المقصود إسرائيل) .

ولا أدري حقا ، كيف سيتم تنفيذ هذا ؟ فإذا أردنا أن نعلم أبناعنا تاريخ مصر - مثلا - بدءا من عام ١٨٨٢ ، حيث غزانا جند الإنجليز ، هل إذا صورنا ما فعلوه كما تقول وثائق التاريخ يعتبر تحريضا على كراهية الأوربيين ، فنكذب التاريخ ، ونكتب أنهم جاءوا لبث المدنية والتقدم ، بنصب المشاتق في دنشواى ؟ وإملاء الحكام على المصريين الذين يسايرون ويخنعون ؟

وماذا نكتب عن أرض فلسطين عام ١٩٤٨ ؟ إن كتبنا ما حدث وهى أن أشتاتنا من شعوب متعددة أجنبية جاءوا واغتصبوا الأرض الفلسطينية وقتلوا الآلاف وشردوا أهلها وطردوهم من ديارهم ، هل سوف يعد هذا بثا لكراهية (دول الجوار) ؟ أم يصبح من المطلوب أن نكتب عن عودة اليهود الأجانب إلى أرض كان يشارك في الإقامة عليها يهود ماتوا واندثروا منذ ألفى عام ، وجاء يهود أوربيون ليرثوهم فأهلا بهم وسهلا ؟! الحق أقول ، أنا لست خائفا من هذا الذين ينووه الأمريكيون ، فماذا نتوقع من قوم طفوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد ؟ وماذا نتوقع من قوم مثلهم مثل الكلب " إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث " ؟

إنما أخاف وأضع يدى على قلبى ممن يمكن أن يعتمد عليه الأسياد الجدد من أتباع الداخل وعملاته ! نعم ، إنه قانون من قوانين النفس البشرية ، أن جرح الأخ والصديق والقريب أشد إيلاما من جرح الغريب ، حتى لقد قال قائل : اللهم احمنى من أصدقائى أما أعدائى فأنا كفيل بهم !

* اللواء العربى ، فى ١/١/٢٠٠٣

الأدب مصدرا للتأريخ للتعليم

مما هو معروف ومشهور أن التأريخ للتعليم ، شأنه شأن مجالات التأريخ الأخرى ، يعتمد بالدرجة الأساسية على المصادر الأصلية التى تتبدى فى الوثائق والتقارير والآثار والقوانين والإحصاءات الرسمية وشهادات المعاصرين للفترة المؤرخ لها ، وكل دراسة تؤرخ للتعليم تفتقد هذا لا تعد دراسة معتمدة ، وأبرز ما يمكن الإشارة إليه فى هذا المجال مثلا لهذا ، تلك الدراسات الرائدتين للراحل الدكتور أحمد عزت عبد الكريم واللتين أرخ فيهما للتعليم فى مصر منذ عهد محمد على حتى أوائل حكم توفيق .

والتأريخ الذى تعرضه هاتين الدراسات الرائدتين ، وما سار على دربهما ، هو تأريخ " للنظام التعليمى " ، من حيث مؤسساته : نشأتها وعدد التلاميذ فيها ومناهج الدراسة بها وإدارتها والأنشطة التى كانت تمارس ، ومعلميها ، وأهدافها ، وفلسفتها . . . وهكذا . لكن ظهرت هناك مجالات أخرى إضافية للتأريخ تتجه إلى تتبع الآراء والأفكار والاتجاهات ، سواء الفكرى منها أو الاجتماعى والنفسى .

وإذا كانت الآراء والأفكار والمواقف والاتجاهات قد تظهر صريحة جلية فى كتابات المفكرين والمتخصصين ، كتبها كانت أو مقالات ، إلا أن الجزء الأكبر منها ، وخاصة فى البلدان التى عاشت زنا طويلا ترزح تحت وطأة التخلف والقهر ، لا يجىء بهذه الصورة ، لأنه غالبا ما يكون " متضمنا " ، من وراء حجاب ، إن صح هذا التعبير ، من خلال أشكال أخرى غير هذه وتلك مما أشرنا إليه من مصادر التأريخ المعترف بها والمعروفة . وهنا يبرز الأدب بصفة خاصة كأبرز تلك الأشكال التى يمكن أن تحمل الكثير من الصور التى تخبرنا بحال التعليم فى هذه الفترة أو تلك .

وعلى الفور أتوقع أن يبادر البعض القلوب بأن الأدب تغلب عليه الخيالات الخاصة ، والنزعات الشخصية ، ، وأنه لا سجل واقعا وإنما يبنى عالما متصورا هو من إنشاء الأديب نثرا أو شعرا .

ومع التسليم بالكثير من هذا إلا أننا لا ينبغى بأى حال من الأحوال أن ننسى حقيقة أساسية تجمع عليها الدراسات العلمية النفسية ، ألا وهى أن أى مظهر من مظاهر السلوك الإنسانى ، فإنما هو مرآة لبعده وجزئية من أبعاد وجزئيات الحياة الواقعية ، إلى الدرجة التى عبر عنها الوعى الشعبى فى قوله " الجعان يحلم بسوق العيش " ، فحتى عندما يحلم الإنسان ، وهو فعل خيالى تماما ، يعطينا صورة لواقع فاعله ، فإذا حلم بسوق العيش ، فهذا له دلالة على حالة من الجوع يعانيتها !

ومن قبل كتب طه حسين ، فى كتابه الشهير : فى الشعر الجاهلى ، والذى غير
عنوانه إلى : فى الأدب الجاهلى ، يؤكد أن الأدب إنما هو مرآة لحياة الناس ، وحسبك
مصادقا لذلك أن تقرأ بعض روايات نجيب محفوظ ، مثل بداية ونهاية ، والثلاثية ،
وخان الخليلي ، وزقاق المدق ، والقاهرة الجديدة لتبصر أمامك صورة ميكروسكوبية
للمجتمع المصرى فى العهد الملكى ، وخاصة فى المدينة ، والتفاصيل الدقيقة التى
تحملها أحداث هذه الروايات قد لا تسعفنا بعض الوثائق التاريخية لتنبئنا بها .

ومن هنا نستطيع أن نقول بغير ما مبالغة أن الوثائق التاريخية - على دقتها
وموثوقيتها إنما " مصور جغرافى مسطح " ، كما نراه على صفحات الورق ، أما تلك
الحياة المجتمعية التى نراها فى بعض الصور الأدبية ، مثل هذه الروايات التى أشرنا إلى
أمثلة منها ، فهى تقدم لنا " مصورا جغرافيا مجسما " تشعر من خلال استقراءها بمختلف
أبعاد الزمان والمكان .

وتشدد الحاجة إلى المصدر الأدبى ، عندما نكون بإزاء فترة تشح فيها الوثائق ،
وعلى سبيل المثال ، لفترة مثل العصر الجاهلى ، ربما لا تسعفنا فيها المصادر التاريخية
المعروفة ، لكننا نستطيع أن نجد فى الشعر الجاهلى ، نافذة رائعة صادقة تشير لنا إلى
الكثير مما أصبحنا نعنى به فى التأريخ للتربية . إنما هنا لا نبحت عن تاريخ قيام منشأة
تعليمية ، ولا عن عدد التلاميذ ، ولا الكم المرصود من الأموال للإلتحاق على التعليم ، ولا
عن أسماء المسئولين والمعلمين ، فهذه كلها بالفعل لا سبيل إليها إلا المصادر المعتمدة
المعروفة ، لكننا نبحت عن قيم تربوية ، واتجاهات ومواقف ، وفلسفات ، وآراء ،
وعلاقات ، وهذه وتلك مما كان لا يعنى بها بدرجة كافية الذين كانوا يؤرخون للتعليم من
قبل .

إن المؤسسات ، والأموال ، والأشخاص ، والمناهج والمقررات ، إنما هى الجزء
الظاهر من جبل ثلج التعليم ، إذا صح هذا التشبيه ، لكن الجزء الخفى ، عادة ما لا
تصوره المصادر التاريخية المعروفة إلا نادرا ، وهنا تجئ المصادر الأدبية لتكمل
الصورة وتكشف بأشعتها عن هذه الأجزاء غير المرئية .

انظر على سبيل المثال ، التأريخ لأوضاع المعلمين فى مصر فى العصر الحديث . .
فالوثائق سوف تقول لنا : متى أنشئ أول معهد ، ومن الذى أنشأه ؟ وما المقررات التى
درست فيه ؟ والأموال التى رصدت له ، وحال التلاميذ والتعليم فيه ، وهذا كله مرغوب
فيه ومطلوب ، لكن ماذا كان موقف الرأى العام ، والثقافة القائمة من مكانة المعلم ؟ لا
حديث هنا فى الوثائق ، مع أن مثل هذه هو الذى يحرك العمل كله ، من وراء ستار .

فإذا ما قلبت صفحات ثلاثية بين القصرين لنجيب محفوظ ، عند هذا الموقف الذى كان بين السيد أحمد عبد الجواد وابنه كمال عندما حصل الثانى على " البكالوريا " - الثانوية العامة - وسأله أبوه عن المدرسة العالية (الكلية بمصطلح أيامنا الحالية) التى ينوى الالتحاق بها ، فقد أجاب بأنها " المعلمين العليا " - كلية التربية الآن - فإذا بالأب يثور ثورة عنيفة على الابن ، لأنه لم يفكر فى الالتحاق بمدرسة " محترمة " ، والمدرسة المحترمة التى يعينها الأب هى مثل ما نعبّر عنه الآن بمصطلح " كليات القمة " ، وكانت المدرسة المحترمة المقصودة هى مدرسة الحقوق ، أو البوليس ، مثلا !

لم يكن هذا الموقف صورة من خيالات نجيب محفوظ ، وإنما هى صورة دقيقة تعبر عن المكانة الاجتماعية للمعلم فى فترة العشرينيات ، حيث كانت معاهد إعداد المعلمين " مجانية " لقلّة الإقبال عليها . . أيضا لتدنى مكانتها الاجتماعية ، وبالتالي فإن الذين كانوا يتجهون إلى الالتحاق بها هم من أبناء الفقراء الذين لا تمكنهم حالتهم الاقتصادية من الإنفاق على التعليم العالى فى المعاهد الأخرى التى كانت بمصروفات باهظة ، بمقاييس ذلك الزمن ، وكأنها نفس التفرقة الآن التى تبرز إلى الذهن الآن ، بين موقفين ، موقف من يلحقون أبناءهم فى بدء التعليم بالمدارس الحكومية المجانية ، وموقف الذين يلحقونهم بمدارس اللغات الخاصة !

وقد اعتمدت أنا شخصيا على هذا المصدر فى عدد من الدراسات التى هيا الله لى أن أقوم بها ، ومن هنا فعندما أرخت للتربية فى الحضارة المصرية القديمة ، وجدت فى الأدب المصرى القديم منبعاً ثريا أمدنى بالعديد من القيم التربوية التى حكمت الثقافة المصرية القديمة ، وعلى الأخص من خلال التعاليم التى صدرت عن بعض الحكماء . وكذلك عندما قمت بالتأريخ للتربية العربية فى العصر الجاهلى ، إذ ما وجدت أمامى أغنى وأثرى من الشعر الجاهلى تصويرا للعديد من الزوايا والجوانب التى تكون فى مجموعها صورة إن لم تكن متكاملها ، فعلى الأقل ، هى شبه متكاملة ، فى حدود ما قد أتيج لنا من مصادر عن هذه التربية .

* الأهرام ، فى ٨/٩/٢٠٠٠

هنا بكاء عند الدخول . . وهناك بكاء عند الخروج !

هو أحد الذين يدرسون معي للمجستير أسعدته الظروف بأن يكون مرافقا لزوجته للسفر إلى إنجلترا في مهمة علمية لمدة سنتين ، وكان لهما طفل يبلغ من العمر ست سنوات ، فلما عادا من المهمة ، وجاء يقابلني ، كان من الطبيعي أن أسأله عن خبرته هناك ، فكان مما قاله أن طفلهما لم يستغرق أكثر من ثلاثة شهور يعانى من مشكلة فقد القدرة على التعامل باللغة الإنجليزية ، وبعدها إذا به يتفوق على والديه ، ولم تعد هناك مشكلة في اللغة ، لكن المشكلة التي كانت تزعجه يوميا على وجه التقريب أنه عندما كان يذهب لأخذه من المدرسة بعد انتهاء اليوم المدرسى في الخامسة مساء ، كان الطفل يبكي كثيرا ، لماذا ؟ لأنه لا يريد أن يترك المدرسة ويعود إلى المنزل !!

وعلى الفور كان لابد أن تنفض إلى ذاكرتى الماضية وذاكرتى الحالية صور متعددة لمواقف عكسية ، حيث كنت أرى مظاهر غضب وحزن وبكاء ، لا للشئ إلا لأن طفلنا هنا في وطننا الحبيب يخل المدرسة ، فإذا ما دقت الأجراس معلنة انتهاء اليوم المدرسى ، لا في الخامسة وإنما بدءا من الثانية عشر ظهرا في بعض المدارس ، حتى تعم البهجة الأطفال ، وتدب الصحة والعافية في أجسادهم ، ويقفزون درجات انسلم قفزا يكادون يتساقطون بعضهم فوق بعضا ، فرحا بالخروج من المدرسة ، وكأنهم كانوا معتقلين ، وحانت ساعة الإفراج ! بل وأحيانا ما يشعر أطفال بمظاهر مرض فعلى ليلة بدء الأسبوع وبعد انتهاء عطلة الجمعة أو الأحد ، وزملائنا أساتذة الصحة النفسية يفسرون ذلك بأن الإنسان إذا كره التعامل مع شخص أو مكان وأجبر على هذا التعامل ، يكون الحل هو مرض حقيقى يكون مبررا لرفض التعامل .

ويستفيض تلميذى العائد من إنجلترا في الحديث واصفا مدرسة ابنه ، فإذا بها أشبه بنادى ، الخضرة والأشجار تملؤها . المساحة متسعة للغاية ، بها حمام سباحة ، مراجيح متعددة ، ألعاب أخرى متنوعة ومتطورة . دورات مياه غاية في النظافة ومهياة للأطفال الصغار ، الفصول ليست ذات صفوف وإنما أشكال شتى من نظم الجلوس على موائد مستديرة أو على شلت على الأرض ، مطبخ جميل لإعداد وجبات خفيفة وساخنة للأطفال ، نظام يسمح بتطوع أم أو أكثر تمكث في المدرسة طوال اليوم تقوم بمساعدة المدرسة في أعمال شتى فيشعر الأطفال بدفاء الأمومة ، وتكون الأمهات على وعى ودراية بما يحدث مع أبائهم ، لا تركيز في مرحلة الروضة على " التعليم " عن طريق

مناهج وكتب ومقررات وواجبات ، وإنما على "التربوية" من خلال اللعب والمواقف المختلفة ، فإذا ما كانت المدرسة ابتدائية ، حرص المعلمون على أن يكون أداء الواجبات المدرسية جزءا من الحصة نفسها ، بحيث يعود الطفل إلى المنزل دون أن يحمل على كتفيه " زكّية " كتب وواجبات . . إلى غير هذا وذلك من جوانب تجعل المدرسة " جنة " تتفوق كثيرا على ما يراه الطفل في منزله ، فيرغب الطفل في ألا يغادر المدرسة حقا ، ومن هنا تجيء فعالية عملية التعليم ، يلتحم ما يتعلمه بشخصيته ، ويثبت في ذاكرته وفي وجدانه !

ولا أريد أن أصف ما يحدث لأطفالنا في مدارسنا فنحن جميعا نعرف ونتألم فعلا ، نلتمس العذر لأطفالنا أن تختفى البسمة من على وجوههم . إن هذه الصورة للمدرسة الإنجليزية ليست حلما لا نستطيع أن نحققه ، ذلك أن مدارسنا منذ عدة عقود كانت هكذا ، بل إن هناك مدارس خاصة حالية استطاعت أن تقرب من هذا ، لكنها بآلاف الجنيهات ، لأبناء القادرين ، لكن الجماهرة الكبرى من أبناء الناس هي التي نتمنى أن تتحول مدارسهم إلى أمكنة محببة لهم لا أن تستمر وكأنها سجون ومعتقلات .

* الميدان في ٢٦/٩/٢٠٠٠

الغش من المنبع !

ظاهرة غريبة لفتت نظري وأنا أفكر في استهلال أبدأ به المقال الحالي ، وهي أن هذا الاستهلال أصبح " لحنًا مميزًا " وقاسما مشتركا في معظم المقالات التي تتناول قضايا مختلفة . . . ألا وهو البدء بما كان يحدث " زمان " وما هو حادث اليوم ، والتغنى بما أصبح شائعا تسميته بأنها أيام الزمن الجميل ، فماذا يعنى هذا ؟ أليست سنة التطور تقضى بأن يجئ يومنا أفضل من أمسنا ، فما بال الجمع الأكبر منا قد أصبح يشيد بأيام زمان ، ويأسف لما يراه اليوم ؟ أترك الإجابة لفتنة القارئ !

ومعذرة ألا أستطيع الفكك من هذا اللحن المميز فأقول أنا أيضا في استهلالى للمقال ، أننا أيام زمان كنا ننظر إلى الذى يضبط فى " لحظة " غش فى امتحان مقرر ما وكان هذه حادثة كبيرة نتناقل أخبارها ونأسف لحداثها وننظر إلى مرتكبها على اعتبار أنه بالفعل من المنحرفين .

كان المظهر الشائع للغش أن يسرق الغاش بنظرات سريعة أجزاء من إجابة جار له ، ثم استقر سنوات طويلة على ما أصبح شائعا تسميته " بالبرشام " . . . قطعة صغيرة من الورق مكتوب عليها بخط " منمنم " الكثير مما جاء بالكتاب المقرر يخفيها الغاش فى مكان ما وينتهاز فرصة غفلة سريعة من المراقب لينقل منها ما يتصل بالإجابة . كان غشا فرديا ، وللحظات ، وفى أجزاء من المادة ، ثم إذا به يصبح معظم الوقت وفى كل المواد ، ويمارسه الجمع الأكبر من التلاميذ !

وفى عام ١٩٨٧ على وجه التقريب يتطور الأمر ويسير خطوة إلى أمام (أم إلى الوراء ؟!) ، فقد فوجئ الرأى العام بحادثة كبيرة فى نفس المنطقة التى نشر عنها فى الامتحانات الأخيرة ، الحسينية بمحافظة الشرقية ، أطلق عليها وقتها (الغش الجماعى) حيث كان أهالى التلاميذ يستخدمون الميكروفون فى إسماع أولادهم الإجابة على أسئلة الامتحان ، أحيانا أو تسريب الإجابة التى كتبها محترفون مثل الكتبة العموم جلسوا أمام باب المدرسة ، وبعد بدء الامتحان سربت نسخ لهم فسارعوا بكتابة الإجابة لتسرب إلى التلاميذ بالداخل ، وفاضت أنهر الصحف والمجلات بكم كبير من المقالات والتحقيقات عن ظاهرة الغش الجماعى وأسبابها وكيفية مواجهتها ، ثم سكت الجميع وكان الأمر قد تم حله والمشكلة قد تمت مواجهتها ، ولكن هذا لم يحدث مع الأسف الشديد تحت شعار " كله تمام " !

وابتكرت أساليب شتى للغش وأصبحت " البرشامة " موضة قديمة متخلفة ، فقد أصبح المراقبون أنفسهم يتغافلون عن الغش ، بل وأصبح مسئولون صغار " يأمرون " به فى بعض اللجان . . لا أقول هذا ادعاء وظلما ولكن ما يمر عام إلا ويروى لى طلابى من المعلمين فى الدراسات العليا ببعض كليات التربية شكاوى بأنهم أحيانا ما يؤمرون بالفعل بذلك حتى تتباهى المدرسة بحسن النتيجة ، وهناك " العزومات " التى ترتب لجملة المدرسين المراقبين ومسئولى اللجان ، والتسهيلات فى الإقامة والمواصلات فى كثير من القرى والنجوع حتى يردوا هذا الجميل فى تسهيل الغش والتفويت فى التصحيح !!

وأنا أعلم مقدما أن أى مسئول سيقراً هذا الكلام سوف يكذبه ويرمى بالكذب والإدعاء ، ومثل هذه الأمور ، لا أستطيع مع الأسف الشديد أن أقدم الدليل المادى ، لأننى لا أستطيع أن أسجل أحاديث المعلمين لى اعترافا بهذا الذى يحدث ، وإنما فقط أعتمد على مدى ثقة القارئ أننى لا أستطيع أن أدعى أمرا كهذا كذبا ، تماما مثلما نرى فى عدد من قضايا الانحراف (أشهرها مثلا قضايا العيولات والرشاوى) التى أصبح من العسير ، وفق ما يستخدم فيها من أساليب حديثة ، ضبطها !

ولأننا لا نريد أن نتخلف عن ركب العصر من حيث أنه عصر اختراعات تسهل الأمور وتيسر الحال ، كان لابد من اختراع وسيلة حديثة للغش تتفق مع حالة التخلف التعليمى والمجتمعى التى نعيشها بكل أسف ، فكان أن ظهر ما يمكن تسميته بالغش من المنبع ، أى الحصول على أسئلة الامتحان بدون الحاجة إلى تكبد مشقة الغش بصورة التقليدية الشهيرة ، وكان أول ظهور علنى لهذه الوسيلة هو تلك القضية التى نسبت لابن فنان شهير ، وكان ذلك بالإسكندرية منذ سنوات تقل عن أصابع اليد . ولا شك أن كثيرين يسارعون بتوجيه أصابع الاتهام إلى وزارة التربية والتعليم ، وأنا هنا لا أدافع عن الوزارة فهى أقدر على هذا منى ، ويعرف القارئ جيدا أن كاتب هذه السطور كثيرا ما عانى وما زال ، من جراء نقده شبه المستمر لما تقوم به الوزارة من عمليات شكلها الخارجى لامع براق ، والحديث عنها حلو السماع ، لكن المحصلة العملية لها أنها تؤدى إلى تخريب للتعليم فى مصر ، ولكننا فى المجال الحالى نظلم لوزارة كثيرا إذا تصورنا أنها المسؤولة وحدها عن هذه الصورة المبتكرة للغش من المنبع عن طريق تسريب الامتحانات .

إن الذى ينبغى أن ننبه إليه القارئ أن التعليم مهما كان فإنما هو جزء من من البنية المجتمعية العامة يصيبه ما يصيبها من خلل وانحراف ، ويقويه ما تكون عليه هذه البنية من آيات قوة وصحة وعافية ، فالطالب الذى يغش عادة هو طالب مهمل لم ينتظم فى دروسه ، ولم يذاكر ، أفلا تتحمل أسرته وتربيته المنزلية العبء الأكبر فى هذا ؟

وهو فى التجائه إلى هذا السلوك الذى هو صورة من صور السرقة ، أليون ابواه مسئولين بالدرجة الأولى عن سوء تربيته وغياب قيم الاعتماد على النفس وفضائل الأخلاق ؟

ولو حاولت أن أتحدث عن صور عديدة من الغش فى الحياة المجتمعية لاحتاج الأمر لأكثر من مقال ، بل إلى كتاب كبير . وأشهر ما يمكن أن نشير إليه هو القضية الأخيرة التى عرفت بقضية نواب القروض . لقد غش مسئولون كبار فى البنوك ، والدولة ، ومجلس الشعب ، حتى تم نهب مئات الملايين من أموال الناس والدولة ، والفرحة العامة التى عمت الناس للأحكام التى صدرت ضد المتهمين ما كانت تشفيا فيهم ، ولكن لأنها من المرات النادرة التى رأينا فيها لوصفا كبار الا يتخفون وراء سلطة ونفوذ ويهربون وتحفظ القضايا بالنسبة عليهم كما حدث عشرات المرات ، ونكاد أن نقول : مئات المرات قبل ذلك .

ولو استمر هذا النهج وتكرر ، فسوف تكون له آثاره الاجتماعية والتربوية الإيجابية : ، لأن الناس عندما ترى حرصا على تطبيق القانون على الكبار قبل الصغار سوف يحترمون القانون ، وتقل حالات الانحراف . ووجود عدد من المتهمين من نواب الخبز الحاكم فى مجلس الشعب مؤشر خطير على عمليات غش حدثت سواء فى اختيارهم للترشيح أو فى نجاحهم نفسه . وقل مثل هذا عن حالات متعددة من الغش فى تصاريح البناء ، وفى عمليات البناء نفسها التى تسفر عن انهيار العمارات الجديدة . وعالم التجارة والصناعة لا يخلو كذلك من أمثلة متعددة .

ولكننا لا نستطيع أن نرفع المسئولية تماما من على كاهل وزارة التربية ، إنها من الناحية الأمنية أستاذة فى مراعاة الإجراءات الحصينية ، لكن المسألة التى لا تقل عن هذا أهمية ، فهى نمط الامتحانات وأساليبها ، فهى تشجع على الغش لأنها تقوم على توجيه أسئلة تقيس مقدار ما حصله الطالب حفظا وبطريق مباشر تجعل عملية الغش سهلة مغرية .

• الميدان فى ٤ ، ١١/٧/٢٠٠٠

التعليم بين الإحياء والانتكاس

" على أنهار باهل هناك جلسنا

بكينا أيضا عندما تذكرنا صهيون

على ضفاف الصفصاف فى وسطها علقنا أعودنا

لأنه هنا سألنا الذين سبونا كلام ترنيمه

ومعذبونا سألونا فرحين قائلين : رنمو لنا ترنيمات صهيون

كيف نرنم ترنيمه الرب فى أرض غريبة ؟

إن نسيتهك يا أورشليم ، فلتنس يمينى مهارتها ، وليلتصق لساتى بحنكى

إن لم أفضل أورشليم على كل فرحى !

إنها نصوص مشهورة جاءت فى مزامير داود التى يضمها العهد القديم ، كتاب اليهود المقدس ، والتى أصبحت جزءا أساسيا من دستور حياة الحركة الصهيونية ، حتى تمكنت من أن تحقق الوعد باحتلال أرض فلسطين ، حتى لا تنسى يمين اليهودى الصهيونى مهارتها ، وحتى لا يلتصق لسانه بحنكه ، ما دامت القدس قد أصبحت أسيرة بين يديه ! لكننا ، كعرب ، كدنا أن ننسى القضية فى غمار طوفان من عمليات "غسيل مخ" ، عبر أجهزة الإعلام والتعليم ، بأن السلام " خيار استراتيجى " ، أى أن مقابله " مرفوع من الخدمة " ، والمقابل : هو المقاومة ، والمقاومة قد تكون بالحرب النظامية المسلحة ، لكنها يمكن أيضا أن تكون بأشكال شتى ، منها المقاطعة ، ومنها حرب العصابات ، ومنها البث الإعلامى والتعليمى بالأبعاد الحقيقية للصراع العربى الإسرائيلى .

ومن حسن حظ هذه الأمة حقا أن يتقدم الصغار ليُعلموا الكبار !

تقدموا بالحجارة وبالصدور العارية ، وبطوفان مسيرات بأصوات عالية ليوقظوا النائمين ، وينبهوا الغافلين ، لحقيقة وهم السلام ، لأن السلام بين القاتل والمقتول أو بين اللص والضحية لا معنى له إلا بعودة الحياة للمقتول أو بعودة المسروق إلى صاحبه

وبالفعل ، بدأت لأول مرة مظاهر يقظة شعبية فى أنحاء شتى من الوطن العربى ، يقظة تعرى المتخاذلين أصحاب نهج " المسايرة " ، وتضغط على الأنظمة وتخرجها أملا فى أن تنتقل إلى نهج " المغايرة " .

كان أروع ما أتلى صدرى حقا أن تتبدى هذه اليقظة بين الشباب والأطفال بصفة خاصة . . حفيدى الذى يبلغ من العمر ست سنوات يطلب من أمه أن تصنع له علما

إسرائيليا كي يحرقه فى الشرفه ! مكتبتى الكبيرة التى أقيم بها معظم أيامى تقع خلف جامعة عين شمس ، تتراى إلى أنى صيحات الطلاب ممن أعمارهم تقع بين الثامنة عشر إلى الثانية والعشرين ، تهتف للقدس وللأقصى وللفلسطين وتندد بالإسرائيليين الذين اعتبرتهم الأنظمة الحاكمة " أصدقاء " ، وتندد بالولايات المتحدة ، التى يعتبرها الحكام " راعية السلام " ! وأعانى صعوبة كبيرة فى الدخول أو الخروج إلى مكتبتى من جراء حصار قوات الأمن المركزى حاملة الهروات ، وبعض الأسلحة ، بالعربات المصفحة حتى لا تنتقل اليقظة إلى عموم الناس !

كان عبد الوهاب يعنى : محلاها عيشة الفلاح ، وما أنذا أغنى ، ما أحلاها رائحة الوطنية والعروبة التى افتقدتها منذ سنوات زادت على ربع القرن ، تحت سنابك الانفتاح ، وسياط العولمة ، وضربات أوهام السلام مع العدو الصهيونى !

وأساءل بينى وبين نفسى متعجبا : كيف تأتى لهؤلاء الصغار كل هذا الوعى وهذه الروح ، وهم قد ولدوا بعد كامب ديفيد ولم يكتووا بنيران الصراع المباشر مع العدو الصهيونى ، ولم يسمعو نشيد فلسطين لعبد الوهاب الذى كانوا قد دفنوه ، أو يا مجاهد فى سبيل الله لسعاد محمد ، والله أكبر للمجموعة ؟ كيف تأتى لهم كل هذا الوعى ، وقد اختفت من لغة إعلامنا وتعليمنا كلمات : الصهيونية ، الجهاد ، المقاومة ، الاستعمار ، الإمبريالية ، العدو .. وحلت محلها كلمات : التفاهوس ، السلام ، الاعتماد المتبادل ، العولمة ، الشرق أوسطية ، التعاون الاقتصادى ، ثقافة السلام ، جماعة السلام .. إلى غير هذا وذلك من كلمات ؟

بل لقد كنت أنا نفسى أنظر بقدر كبير من الحسرة وضعف الثقة إلى صغارنا وشبابنا على أنهم جيل الهاميرجر وثقافة ال " تيك أواى " وملابس الجينز والكاجوال ، وأغانى الديسكو والتنطيط وتلعيب الحواجب وإبراز المفاتن ، ودغدغة مواضع الجنس !

لكن ، ها هى اللحظة النادرة التى أصبح فيها لأول مرة بينى وبين نفسى : الحمد لله : لقد فشل تعليمنا فى تحقيق ما أردوا أن يفعله بعقول أبنائنا !

يقول لنا الأطباء أن زرع جزء غريب فى جسم الإنسان عملية لا بد أن تنتهى بأن يلفظ الجسم هذا الجزء الغريب ، مهما بذلنا من عمليات جراحية وأنفقتنا عليها أموالا طائلة .. كذلك جسم التعليم المصرى .. حاولوا أن يزرعوا فيه من المفاهيم ، ومن الاتجاهات ، ما هو غريب عن إرثه الثقافى وقيمه وموروثه التاريخى ، ومصالحه الحقيقية ، وعقيدته ، فكان من الطبيعى أن يلفظها عندما تجئ اللحظة الحاسمة .. وهكذا خرج الألوف من صغار أمتنا وشبابها يعبرون بغير ما تعلموا ، وينطقون بغير ما لقنوا ! حقا :

" ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين " !!

لقد طلبت إلى العريزة رئيسة تحرير المجلة الغالية "سطور" - متفضلة - أن أكتب عن موقع تعليمنا وموقفه في ضوء تلك الانتفاضة الرائعة لجماهير شعبنا العربي في فلسطين المحتلة ، وهي تقذف بالحجارة جنودا متمرسين داخل الدبابات والعربات المصفحة والمحلقيين في المرحيات الهوائية يسלטون مدافعهم وصواريخهم إلى البيوت والأطفال والنساء والشيوخ والشباب . . لا فرق !

وعندما أخذت أقلب بين مراجعي وأوراقى أيقنت بضرورة الاعتماد على تلك المقولة الشهيرة : وبأضدادها تتمايز الأشياء !

فإذا نظرنا إلى أسلوب المواجهة العسكرية ، فسوف نجد أن الركن الأساسي الذي استندت إليه قوتنا المسلحة ، هو أن يتشكل الأسلوب ويتوجه وفقا لما عليه الأمر المماثل لدى الطرف الآخر ، بحيث يجرى متفوقا عليه في القوة ومضادا في الاتجاه . . . وعليه ، فلا بد من أن يقف القارئ على بعض ما يجري على ساحة "الآخر" التعليمية والثقافية ، ليعرف مستوى ما لدينا ، وما هو المفروض أن يكون . . .

فما لا شك فيه أنه ما من جماعة بشرية إلا وترغب في الاستمرار والحياة ، ولكن ، ما من شك أيضا أن الجماعة البشرية لا تستطيع ذلك إلا بالقدر الذي تستطيع عنده التكيف بمقتضى الظروف المتقلبة . ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل لابد من الإفادة إلى أقصى حد ممكن من كل هذه الظروف .

ويتبدى هذا بدرجة أشد إلحاحا بالنسبة للكيان الصهيوني في أرض فلسطين المحتلة ، بحكم محدودية موارده إلى حد لابد عنده من وجود قوى بشرية منظمة تقف على رأسها قيادة على مستوى عال من الكفاءة ، تعمل بهدى ما تقوم به أجهزة البحث العلمي ومؤسسات التعليم ، حتى يمكن لهذه القيادة أن تطمئن - ويطمئن معها الناس - إلى أن ما اتخذته من قرارات ، سواء في المجال السياسي أو العسكري أو الاقتصادي أو غيره ، كانت قرارات يتوافر لها قدر كبير من الصحة والسلامة وحسن التقدير .

ومن هنا وقف وزير التربية والثقافة الإسرائيلي في الكنيست في سنوات مبكرة (الستينيات) يقول :

" أعرف أنه بعد ميزانية الدفاع ، تعتبر ميزانية التربية والثقافة من أكبر الميزانيات في الدولة " . وفي المؤتمر الصهيوني السابع والعشرين ، شبه " شمعون أفيزيمر " (من إسرائيل / حركة العمل) العلاقة بين الحركة الصهيونية والتربية بالعلاقة بين الشكل والمضمون ، فالحركة الصهيونية بجميع مؤسساتها وأقسام الوكالة الصهيونية ، هي الإطار أولا وأخيرا ، وأما التربية ، فهي الروح ، وهي الجوهر " وبالطبع فإن التربية

دون إطار ، ستكون تصميمها دون شكل ودون مقاييس ودون حدود ، وأما الإطار بغير مضمون وبغير تربية تليق به ، فهو إطار لا شكل له ولا منظر " .

ولقد شهد تاريخنا الحديث من الشواهد ما هو أكثر دلالة على عمق الوعي بالدور الوطنى للتعليم ، فذاكرتى ما زالت تعى عبارة من أدق ما قرأت ، لمصطفى كامل على صفحات اللواء فى أوائل القرن العشرين فى حديث مع أحد الصحفيين الأجانب حيث أكد الزعيم الوطنى أن المسألة المصرية لا تكمن حقيقتها فى الاحتلال البريطانى فحسب ، وإنما فى " الجهل " الذى كان شائعا ، ولكى يدل على صدق مقولته ، قال أنه لو افترضنا أن بريطانيا أجلت جيوشها حالا عن مصر ، كرها أو طوعا ، وظل الشعب المصرى على حاله من الجهل ، فسوف يأتى آخرون غير الإنجليز لى يحتلوننا ما دامت الأثرية على حالها من افتقاد البنية الأساسية للتقدم ألا وهى التعليم .

كانت الحركة الوطنية أثناء عهد الاحتلال البريطانى تدرك تمام الإدراك أن القدرات العسكرية لمصر تقرب من الصفر أمام أعتى امبراطورية عرفها التاريخ حتى ذلك الوقت ، ومع ذلك فلم ترفع تلك الحركة شعار السلام ، ووعت أن هناك أكثر من صورة للمقاومة ، وكان فى مقدمة هذه الصورة بث التعليم

" الوطنى " بين جماهير الناس ، أقول " الوطنى " لأن المسألة ليست تعليما أى تعليم ، وإنما تعليما يكرس الهوية والعزة القومية ، ويبث روح المقاومة ، والثقة بالذات . . .

حدث هذا منذ قرن مضى ، ثم إذا بى اليوم ، فى أواخر عام ٢٠٠٠ أسمع وأشاهد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . . قيادات مسئولة تذهب إلى أننا غير قادرين على المواجهة العسكرية ، ومن ثم فلا بد من السلام مع العدو الصهيونى ! هل نسبة قوتنا اليوم إلى قوة هذا العدو أقل من مثلتها بيننا وبين الإمبراطورية البريطانية منذ قرن من الزمان؟! خبرونى ، فوالله لا أكاد أصدق ما سمعت وما قرأت وما شاهدت ، فلقد استطعنا بإمكانياتنا المحدودة وقوتنا المادية الضعيفة أن نجبر القوات البريطانية على أن تحمل عصاها وترحل !

وإذا كان هناك من الدوافع والمبررات التى تؤكد ضرورة إعطاء التعليم منزلة كبرى تشترك فيها إسرائيل مع غيرها من الدول والمجتمعات الأخرى ، إلا أنها تنفرد عنها بتركيبها الاجتماعى الخاص الذى يولد من المشكلات ما هو كفى بتعويق سرعة التقدم ، بل إن استمرار هذا التركيب بصورته الراهنة يمكن أن يؤدى إلى تصدع ضخم فى المجتمع مما قد يعجل باتيهاره وتفككه ، ولسنا فى حاجة إلى نسوق الحجج والبراهين لنؤكد أن التعليم يلعب دورا هاما فى رأب الصدع الاجتماعى ، فهذه مهمة قد أصبحت الآن من المسلمات التى يقوم عليها التعليم فى أى مجتمع .

وإذا كانت مجتمعات كثيرة تعاني من حدة التناقضات الطبقيّة وينشأ عنها صراع ، إلا أن المجتمع الإسرائيلي عانى من نوع آخر من الصراع ، وذلك بين يهود البلاد الغربية وأكثريتهم الساحقة من يهود شرق أوروبا (أشكناز) ، ويهود آسيا وإفريقيا ، وأكثريتهم الساحقة من البلاد العربية (سفارديم) . وتوزعت الأكثرية الساحقة بين أبناء الطائفة الأولى على مجموعة من الطبقات العليا فى المجتمع ، بينما توزعت أكثرية الطائفة الأخرى على مجموعة الطبقات الدنيا ، أى أننا إذا ألقينا نظرة على الهرم الاجتماعى فى إسرائيل ، رأينا الطبقة الفوقية منه قد استقطبت الأكثرية الساحقة من أبناء الطوائف الغربية ، وأن الطبقة الدنيا منه قد استقطبت الأكثرية الساحقة من أبناء الطوائف الشرقية . ولعل هذا هو ما جذب انتباه القائمين بالأمر فى هذا الكيان الصهيونى - أكثر من أى مجتمع آخر - إلى التعليم كأداة يساعد حسن استخدامها على معالجة حدة هذه التناقضات .

ولعل أهم ركيزتين كتف التعليم الإسرائيلى جهده فيهما هو : اللغة ، والهوية القومية التى استندت بدورها على العقيدة الدينية والتاريخ ، وقلما يفصلون بين الأمرين . فمن حيث الكيزة الأولى وهى اللغة ، لم يبدأ العمل منذ ظهور الدولة ، بل بدأ التمهيد لظهور الدولة نفسها قبل ذلك بعشرات السنين ، ويخطئ من يظن أن ظهور الدولة قد اعتمد فقط على القوة المسلحة ، مهما بلغت من تفوق ، والمساندة الدولية ، مهما بلغت من انحياز ، ذلك أن الصهاينة أنفسهم بذروا البذور أولا على الأرض المطلوبة ، وكانت أهمها بذور اللغة العبرية . .

فقد استطاعت الحركة الصهيونية أن تحرز تقدما هائلا فى إحياء العبرية عن طريق استخدامها كلغة تعليم ، فبعد أن كاتت المدارس التى أنشأها الأوربيون بفلسطين منذ منتصف القرن التاسع عشر لليهود تستخدم لغة البلد التى ينتمى إليها منشئ المدرسة ، أخذت تتحول إلى التعليم بالعبرية ، خصوصا تلك المدارس التى كاتت ترعاها جمعيات روسية الأصل ، كالهوفيفى إسرائيل Hovevei Israel والبيلو Bilu التى كانت شديدة الاهتمام بإحياء العبرية . ولما كاتت العبرية فى ذلك العهد لغة الطقوس الدينية وآدابها ، وليست لغة الكلام فى الحياة اليومية فإن إحياءها قد استلزم جهودا جبارة ، فكان لابد من إعداد الكتب المدرسية بها ، وكان لابد من صوغ مصطلحات ومفردات عبرية تقابل مثلها من المصطلحات والمفردات العلمية ، قبل أن تكون تلك اللغة " لغة التعليم " . وكان من الطبيعى أن يصطدم محبذو التعليم بالعبرية - إن عاجلا أو آجلا - بأولئك الذين يدرسون باللغات الدارجة . وكان من نتيجة هذا الصدام الذى ظهرت بوادره قبيل الحرب العالمية الأولى أن تشكل مجلس التعليم اليهودى " فاد هكنسك " Vad

Hachinuch ، واستولى في سنة ١٩١٤ على ١٢ مدرسة ، وجعل العبرية لغة التدريس فيها .

وقد كانت المدارس التي أنشئت في مستهل هذه الحركة كلها ابتدائية ، فما أن جاءت سنة ١٩٠٥ حتى افتتحت في تل أبيب المدرسة العبرية الثانوية الأولى في العالم ، وهي " الهرتزلياه جمنازيوم " Hertzliah Gymnasium ، ولم يمض زمن طويل حتى افتتحت أخرى - الجمنازيوم العبرية - القدس ، ثم وضع أساس ثلاثة في حيفا سنة ١٩١٤ ، وهي المدرسة الصناعية . وهكذا .

وبالإضافة إلى التعليم بالعبرية لسائر المواد الدراسية ، فقد أنشئت مدارس خاصة باللغة نفسها ، نذكر منها ما يلي :

أ - مدارس تعليم اللغة العبرية ، ويطلق عليها مدارس اليولبايم Ulpanim وتقوم بإنشاء هذه المدارس ، وزارة التربية والثقافة بالتعاون مع الوكالة اليهودية وسلطات التعليم المحلية ، ثم اتحاد العمال الإسرائيليين ، وهي عبارة عن معاهد نهائية لتعليم اللغة العبرية للمهاجرين الجدد .

ب - الصفوف المسائية ، والتي انتشرت في معظم المدن والقرى والمستوطنات ، وكانت هذه الصفوف تقام عادة في المدارس الرسمية الموجودة في تلك المنطقة ، وكان يقوم بالتدريس أيضا معلمو المدرسة أنفسهم ، ولكن بعد أن يتلقوا تدريباً في طريقة تعليم الكبار ، ويستمر تعليم اللغة العبرية في هذه الصفوف لمدة سنتين بمعدل يومين أو ثلاثة في كل أسبوع .

ج - حملة محو الأمية ، إذ قامت بعض المجنندات الإسرائيليات في الجيش الإسرائيلي بزيارة البيوت أثناء النهار ، وقمن بتعليم النساء في بيوتهن ، كما نظمت الحكومة في عام ١٩٥٥/٥٤ سنة خاصة لتعليم اللغة العبرية تحت رعاية رئيس عن طريق المتطوعين .

كذلك ، كثيرا ما كانت الصحافة والإذاعة والتلفزيون تجند لتعليم هذه اللغة بطرق سهلة .

وأعود مرة أخرى لأذكر القارئ بأن كاتب هذه السطور قد قضى سنوات عدة يجمع مادة علمية لرسالته للدكتوراه في أواسط الستينيات عن عهد الاحتلال البريطاني ، فإذا بزخم يصعب حصره من إلهام واضح من كافة مستويات النخبة المثقفة ، باستثناء قلة من المتعاونين مع الاحتلال ، على ضرورة التعليم في المدارس المصرية باللغة العربية ، وشارك في هذا مفكرون ومثقفون مصريون مسيحيون ، جنبا إلى جنب مع المسلمين حيث نُظر إلى اللغة العربية باعتبارها لغة قومية ، وليست لغة دينية ، مع الوعي بأن

هذا لا يعنى إهمال تعلم اللغة الأجنبية ، واستطاعت الحركة الوطنية أن تحرز نجاحا تدريجيا بصدور قرار بأن يتم إلغاء التعليم بالإنجليزية تدريجيا .

فهل بعد ثلاثة أرباع قرن على وجه التقريب نعود القهقري وتراجع اللغة القومية من مواقعها فى تعليمنا وتحل اللغة الأجنبية محلها ؟ وإفما معنى هذا الزحف غير المقدس لمدارس اللغات ؟ وما معنى عودة اللغة الإنجليزية إلى التعليم الابتدائى ؟ وما معنى " تكثيف " المدارس المسماة بالتجريبية الحكومية التى تقوم بالتعليم باللغة الأجنبية ؟ وما معنى التراجع الكبير للغة العربية فى درجات امتحانات الثانوية العامة ؟ وما معنى هذا التدنى المتواصل فى استخدام اللغة العربية فى كافة المجالات ، وعلى كافة المستويات ؟!

إننى أعود فأكرر ، دون ما ملل ، أننا نخطئ كثيرا إذا ما حسبنا القوة الإسرائيلية بمقدار ما تملك من معدات عسكرية ، فالقوة المجتمعية " منظومة " متكاملة من العناصر ، والإصرار على اللغة القومية أحد أهم هذه العناصر . . . ولنقارن بين ما يفعله العدو الإسرائيلى بتعليم لغته ، بما نفعله نحن بتعليم لغتنا ، لنفهم هذا الذى يقوله القادة العرب من أننا أضعف من هذا العدو . . . فهل بذل أقصى الجهود وأمضاها للتعليم بلغتنا ، وتعلمها بدرجة عالية المستوى أمر نعجز عنه ؟ إنه صورة من صور المقاومة الحضارية التى هى " البنية الأساسية " للمقاومة على وجه العموم !

ثم نجئ إلى المركز الثانى فى التعليم الإسرائيلى ، ألا وهو " الروح القومية اليهودية " جادلين معا ، العقيدة الدينية مع التاريخ ، فلقد أدركت الحركة الصهيونية أنه ما لم تتوسل الحركة بالتعليم لإقامة الحياة اليهودية وفقا لأسس التراث اليهودى الصهيونى ، فسوف لا يستطيعون إقامة الدولة المنشودة ، وقد عبر "بار إيلان " عن ذلك خير تعبير فى قوله : " ولا بد أن تصبح جميع المدارس والمؤسسات حكومية لكى يتمكن التلاميذ الذين يرتادونها - ويتمكن أبائهم بواسطتهم - من أن يتلقوا تعليمهم بروح الدين ، لأن التقليد والدين بالنسبة لنا هما كاللغة والأدب بالنسبة لغيرنا . وإذا كان الأمريكيون على حق عندما يقولون : إذا شب أطفالهم دون معرفة بالإنجليزية ، يتوقفون عن حب شعبهم ويفقدون الرغبة فى الدفاع عن بلادهم ، فنحن أيضا على حق فيما يتعلق بديننا وتراثنا لكى لا يشب أطفالنا وهم خالون من الشعور القومى والدينى ، فيقطعوا الصلة التى لا تربطهم بالحياة اليهودية وينظرون إلى أرض إسرائيل كبلد لا يختلف عن بلاد الأغيار . " من أجل ذلك فقد خصص المؤتمر الصهيونى السابع والعشرين دائرة خاصة باسم " دائرة تربية التوراة وثقافتها من الشتات " بناء على أحد قرارات المؤتمر الصهيونى السادس والعشرين ، إذ جاء فيه : " تزويد النشء اليهودى فى الشتات عن طريق

المؤسسات التربوية اليهودية بتربية يهودية كاملة بشرط أولى لضمان استمرار الوجود اليهودي ولرفع معدل الهجرة إلى إسرائيل ، ولتمكين عملية جمع شمل المنفيين من يهود العالم في إسرائيل !

وفي مصر ، عندما ارتفعت دعوة ، منذ عام ونصف على وجه التقريب ، إلى إحياء فكرة الكتابيب ، انطلقت المدفعية الثقيلة ضدها متهمة أصحابها بالظلامية والرجعية ومحاولة العودة بنا إلى الورا ، مع أن أصحاب هذه الدعوة ليسوا من البلاهة والسذاجة إلى حد تصور العودة إلى الشكل والأسلوب ، فقد عفا عليهما الزمن بالفعل ، ولكنها كانت دعوة للعودة إلى " الهدف " و " الوظيفة " : الاهتمام بتحفيظ أجزاء من القرآن الكريم ، كجزء من الحفاظ على الهوية ، والتأسيس " المسلح " للغة العربية قبل دخول المدرسة ، واعتبار ذلك تجربة ، تسير بجانب ما هو حادث الآن من تركيز على التعليم باللغة الأجنبية قبل الالتحاق بالمدرسة في دور الحضارة ورياض الأطفال ، وندرة الاهتمام بالقيم الدينية ! إنها دعوة إلى طلب المساواة بين أصحاب اللغة القومية ، وأنصار اللغات الأجنبية (كلفة تعليم) ! وعندما دافع أصحاب الدعوة عن اتهامهم بالتخلف ، وقالوا أنهم يدعون كذلك إلى استغلال تكنولوجيا التعليم وأساليب التعلم الحديثة ، نالتهم سخرية وتصويرهم بمن يريدون إقامة " بوفيه مفتوح " من " المش والخبز القديم ، مع الكراث والفجل والبصل " في فندق خمس نجوم !!

ولم تعتمد التربية اليهودية الصهيونية فقط على قنوات التعليم الرسمية النظامية ، وإنما كذلك على وسائل التثقيف العام لبث قيم الاعزاز بالعقيدة والتاريخ ، يقول الكاتب اليهودي الأمريكي " دزرائيلي " في رواية دافيد أكروا على لسان بطل روايته :

" تسأليني عن أعز أمنية عندي ،

وجوابي : هي " أرض الميعاد " ،

وتسأليني عما يداعب أحلامي ،

فأقول " أورشليم " ،

وتسأليني عما يستهوي فؤادي

فأقول إنه " الكنيس " ، أجل

أريد كل ما فقدناه في سالف

الزمان ، وما تهفو إليه نفوسنا ،

وما جاهد آباؤنا وأجدادنا في

سبيل استرجاعه ، بلادنا الجميلة ...

وعقيدتنا القدسية ... وعاداتنا

البيسطة . . . وتقاليدنا القديمة "

وفى الكتاب الذى حرره "يهودا جوروفيتش" و"شمونيل نافون" بعنوان : (ماذا أقص على الطفل ؟) نقرأ نصا من عمل أدبى : " . . . وقام يوسف وبعض رجاله بقطع البلاد (فلسطين) سيرا على الأقدام ، حتى وصلوا إلى الجليل . لقد تسلقوا الجبال والهضاب ، والتى كانت خلابة فى مناظرها ، ولكن فى الوقت نفسه كانت خالية لا يسكنها أحد . . . وقال يوسف : إننا نريد أن نقيم هنا المزرعة الجماعية (الكيبوتز) ، ومن هنا سندحر نحن هذا الفراغ ، وسنطلق على هذا المكان اسم : تل حاي (التلة الحية) . . . إن الأرض خالية من السكان ، لقد ابتعد عنها أبناؤها (القصد طبعاً اليهود) ، لقد تشتتوا ولم يعتنوا بها ، إنه لا يوجد من يحرسها ويعتنى بها " .
هكذا يصل تزييف التاريخ ، وتصوير الأرض المحتلة وكأنها كانت خالية من الفلسطينيين ، وهكذا تصل عملية بث القيم والاتجاهات والمفاهيم " لتجذير " اليهودى فى أرض فلسطين .

ويكتب كاتب آخر للأطفال الإسرائيليين " اليعزر سمولى " فى كتابه (أبناء الشتاء الأول) : " . . . فى بداية شهر أيار من عام ١٩٢١ ، قام بعض المحرضين العرب ، معدومى الضمائر ، بتحريض الجماهير العربية فى يافا وقصوا عليها أقاصيص أكاذيب عن نوايا اليهود فى تل أبيب ، وحرصوهم على القيام بأعمال إجرامية ضدهم ، وقام مئات العتالين والبحارة والزعران الذين يركضون وراء النهب والعطشى للدماء يحملون السكاكين والقضبان الحديدية بمهاجمة اليهود " !

وبطبيعة الحال فنحن لا نتوقع منهم أن يقدموا فى الكتب التى تقدم للأطفال العرب فى صورة ملائكة أو حتى بشرا عاديين ، ولكننا نتذكر على الفور تلك الحركة المؤسفة التى قام فيها مسئولون فى تعلمينا

" بتتقية " مناهج التعليم عن كل ما ينبه أبناءنا بحقيقة الصراع العربى الإسرائيلى ، وبالثورات الفلسطينية ، وبما فعله الصهاينة بنا نحن المصريين فى الحروب الثلاثة ، فضلا عن حرب الاستنزاف ، وحروب المخابرات ، وما فعلوه ضد علمائنا ، وكل من سولت له نفسه من العلماء الأجانب أن يساعد مصر على طريق البحث العلمى المتقدم !
حتى القرآن الكريم ، لم يسلم من هذا التوجه . . . كان من المستحيل طبعاً أن يغيروا من آياته شيئاً ، ومن هنا فإن كل آية تصف اليهود بما استحقوه من لعنة الله ووصفهم بقتل الأنبياء والخيانة والكفر ونقضهم العهد ، لم يسمح له بأن يعرف طريقه إلى كتب التعليم . وكثيرون ركزوا على قوله عز وجل :

" وإن جنحوا للسلم فاجنح لها " ! فكأنهم لم يجدوا في القرآن إلا هذه الآية ، ولم يروا قوله عز وجل :

" لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل ٠٠٠ " ، وعندما أخذ الله يعدد الأسباب التي استحقوا بها اللعنة ، كان منها : " كانوا لا يتأهون عن منكر فعلوه ٠٠ " ، فما يفعلوه من مجازر وقتل وتشريد للآخرين ، ينال التأييد والمدح من بعضهم البعض ، ولا يرتفع صوت ؛ مثلما يرتفع بيننا ، بأن هذا إثم كبير يجب أن ينهى بعضهم البعض عنه .

إن التعليم في دولة الصهيونية يضع نصب عينيه ، في نظمه ولوائحه ، في أهدافه وفلسفته ، في مناهجه وأساليب تعليمه أن يحقق :

- الاعتقاد بأن قيام إسرائيل هو تحقيق للنبوءة التوراتية المزعومة بإقامة مملكة يهوذا في فلسطين حتى بعد هدم الهيكل .

- الاعتقاد بأن هدم الهيكل والسبى البابلي والدياسبورا اليهودية والمذابح النازية كلها تعبير عن حقد الإنسانية على الشعب اليهودي بسبب تفوقه وكونه شعبا " مختارا " ، وأنه لا يمكن وضع حد لهذا الحقد حتى بعد أن استطاع اليهود العودة إلى فلسطين ، لأن البشرية مفعمة بالتآمر للتخلص من اليهود .

- أنه لا أمل بخلص اليهود من هذا الحقد والتآمر إلا من خلال عودتهم من الشتات وتجمعهم في " أرض الميعاد " التي يعيدون فوقها بناء دولة مزدهرة قوية .

- أنه لا يمكن لهذه الدولة أن تبقى على قيد الحياة إلا بتحقيق التفوق التام في المجالات العلمية والتكنولوجية والعسكرية ضد الشعوب العربية المعادية ، وإن في بقاء هذه الشعوب في حالة من التخلف والضعف والتمزق يكمن أحد العناصر الجوهرية لأمن إسرائيل وبقائها!

هذه هي مرامي التعليم وأهدافه في الكيان الصهيوني ، فماذا نحن فاعلون ؟

إن استمرار الانتفاضة الفلسطينية أفضل سبيل لكشف زيف وهم السلام بالكيفية التي طرحت وضمنت في اتفاقيات ، وأفعال وسيلة لبث دماء الثقة في العروق العربية ، وفتح آفاق المستقبل في الطريق إلى دولة فلسطينية ليست مقطعة الأوصال ، منزوعة السلاح ، تملك السيادة على الأرض والهواء ، لا تضم على أرضيها بؤرا استيطانية ، تفتح أبوابها للاجئين الفلسطينيين ٠٠٠

لكنى - حقيقة - لا أتق كثيرا في الساسة العرب ، ولا أتوقع منهم خيرا كثيرا على هذا الطريق ٠٠٠

إن أخشى ما أخشاه أن تتمكن الأصوات المذعورة من تهدئة الانتفاضة ، لتخديرها مرة أخرى بأفيون سلام زائف مع الدولة العنصرية ، لكن ما نستطيع أن نواصله ، حيث

لا طلاقات رصاص ، ولا دماء تسيل ، ولا تفجيرات ، هو ألا نقل عنهم فيما أوردناه من حيث التعامل مع المسألة التعليمية ، فهذه صورة من صور الاستمرار ففي المقاومة ، عن طريق " انتفاضة تعليمية " ، هي ، على المدى ، أشد فاعلية من كثير من الأسلحة الحربية ، وفي نفس الوقت ، لا تصيب الساسة بالخوف والذعر ، ولا تهدد كراسي الحكم ، فهل نحن فاعلون فيكون تعليمنا للبعث والإحياء ، أم نظل على ما نحن فيه الآن على طريق تعليم يقود للانكسار ؟!

* مجلة سطور ، ديسمبر ٢٠٠٠

متى نتصالح مع المواهب ؟

من أسوأ ما يمكن أن يصاب به التعليم فى بلد أن تسير فيه الكلمات ، نطقا وكتابة ، عن طريق الكتب والتصريحات والمؤتمرات ، فى اتجاه وأن يسير الواقع فى اتجاه آخر ، إذ أن النتيجة الحتمية لهذا الوضع أن يُصاب التعليم بنفس هذا المرض المعروف بانفصام الشخصية ، والتي يعرفها الناس فى الصورة المشهورة بـ " مستر جيكل ومستر هايد " ! ونرجو ألا يأخذ مسئولو التعليم عندنا حديثى هذا بحساسية كما هو المعتاد والتعامل معه باعتباره " هجوما " شخصيا ، فالظاهرة التى نشير إليها إنما هى تراث تاريخى لا نستطيع أن نشير إلى مسئول بعينه لنتهمه بأنه هو السبب فى ذلك ، لكننا من ناحية أخرى يمكن لنا أن نقول أن عدم الاعتراف بهذه الظاهرة الحقيقية ، هى مشاركة غير مباشرة فى استمرار ما نشكو منه ، والأخطر من هذا حقا أن نسوق من الأفعال والإجراءات ما يعزز هذا الواقع الذى لا نرضى عنه .

ولعل أبرز مظاهر هذا انفصام فى تعليمنا هذا الذى أخذ يملأ أسمعنا فى الأسابيع الأخيرة عن قضية الموهوبين ، ذلك أن نظام التعليم القائم ، أرسيت دعائمه منذ سنوات طويلة على أساس التعامل مع الطلاب باعتبارهم صناديق نحصر جميعا ، مسئولين وأولياء أمور ، على أن نملأها بالمعارف والمعلومات ، ونعتبرها أماتة نودعها لدى الطلاب ، ونطالبهم بردها لنا عن طريق الامتحانات فى آخر الفصل الدراسى . ونظام بهذه الصورة إنما يشجع على مجرد التحصيل المعرفى ، ولا يتيح أية فرصة لموهبة هذا الطالب أو ذاك أن تظهر، فضلا عن أن تتاح لها الفرصة أن تنمو وتتطور .

إن طريقتنا فى " المحاسبة " و" المسائلة " يمكن أن تعتبر هى " الآلية " السيئة التى تعزز من سوء الوضع القائم ، وإلا فبماذا تسمى طريقتنا فى محاسبة الطلاب عن طريق الامتحانات ومحاسبة المعلمين عن طريق الموجهين ونتائج الطلاب ؟ فنحن نوزع الطلاب إلى مراحل التعليم الثانوى والجامعى بناء على مجموع الدرجات التى يحصلون عليها فى الامتحانات ، وهذه الدرجات تعلق كلما استطاع الطالب أن يجيب على أسئلة هذه الامتحانات ، وأسئلة هذه الامتحانات غالبا ما تتجه إلى قياس ما يعرفه الطالب ويحفظه ، أما تلك الأسئلة التى تشجع الطالب على أن يفكر ، بأن يقارن ويستنتج ويربط ، وأن يثبت وجهة نظره ، فهى نادرة ، بل إن الرأى العام نفسه ، غالبا ما يثور إن جاءت أسئلة الامتحان غير مباشرة ، ومن هنا فكثيرا ما نقرأ فى موسم الامتحانات تصريحات تؤكد على أن أسئلة الامتحان لن تخرج عن المقرر !!

كذلك فإن هذا المجموع العام للدرجات التي نحاسب الطالب عليه يقتصر فقط على مجموعة من المواد التي تترجمها كتاب دراسية مقررة يُطلب من المعلم ألا يعلم إلا هي بالنص ، وبنفس الترتيب ، وإلا تعرض للمساءلة . وما هو مكتوب لطلاب أسوان هو نفسه المكتوب لطلاب الاسكندرية ، وما هو مكتوب لطلاب وجه بحرى هو نفسه المكتوب لطلاب الواحات ، بحجة " تكافؤ الفرص " ، وبالتالي يتحول التعليم إلى " قوالب " جاهزة ، وهو نفس المنطق الذى نراه فى مصانع إنتاج السلع المادية المعروفة . . . سيارات . . . قطارات ، تلفزيونات . . . وهكذا ، وتكون النتيجة أننا نربى عقولا " نمطية " ، هذا مثل ذلك ، وفى مثل هذا النظام لا يمكن أن تتاح الفرصة لموهبة تبده ، ولا لابتكار يظهر لأن الموهبة بطبيعتها " فردية " ، مثلها مثل بصمة الإصبع ، لا تتماثل واحدة عند شخص مع آخر !

فلنراجع إذن طريقتنا فى المحاسبة والمساءلة " التقويم والامتحانات " وسوف يدفعنا هذا بالضرورة إلى تغيير ما نعلم وطريقة ما نعلم !

* أخبار اليوم ، فى ٢٩/٢/٢٠٠٠

السياق الخائق أو الراعى للموهوبين !

بيدو أننا لم نعد نتحرك إلا بإشارة من أعلى! فكم من قضايا قومية على درجة كبيرة من الأهمية تتعقد لها المؤتمرات وتسطر من أجلها أنهر من المقالات ، وتجرى لمواجهتها عشرات الأبحاث والدراسات ، ثم تجد أن الواقع يظل كما هو لا يتحرك ، حتى إذا صدرت التوجيهات العليا إزاء قضية من هذه القضايا، انقلبت البلاد رأسا على عقب حديثا عنها ومؤتمرات وبحوثا وتحقيقات وبرامج إذاعية وتلفزيونية ، والأهم بطبيعة الحال هو اتخاذ عدد من الإجراءات العملية بشأن القضية ، وكان القوم لم يسمعوا عنها إلا بعد هذه التوجيهات ، حتى أننى أشفق كثيرا على السيد الرئيس من جراء ما نضعه على كتفه من جبال همومنا ، ودائما ما أردد أن الوفاء الحقيقي للرئيس هو أن نحمل عنه الكثير من الهموم ، فنبادر نحن بالتفكير ونبادر نحن بالتحرك ، ونبادر نحن بالتنفيذ ، إيماننا منى أنه لا شئ يسعد سيادته قدر ما يجد نفسه حاكما لأمة تتسم بالمبادأة والإيجابية والدينامية ، فعظمة الرؤساء تقاس إلى حد كبير بقدر عظمة من يرأسونهم !

ولعل ما شهدناه فى الأيام الأخيرة مما يتصل بالموهوبين خير مثال لذلك ، فلو فتش أحننا بين البحوث والدراسات التى أجريت فى كليات التربية والآداب فى مصر وغيرها على مدى سنوات طويلة مضت لوجد كما كبيرا منها ، وهى تزخر كذلك بالافتراحت والحلول والإجراءات التى لم تكن تحتاج فقط إلا أن تتبناها السلطة التعليمية ، وكان لابد أن ننتظر حتى يصدر السيد الرئيس تعليماته بضرورة وضعها فى مقدمة جدول اهتماماتنا ، حتى نرى تحركا عمليا ونية وعزما للمواجهة الجادة !

وفى هذا السياق نرجو ألا نتصور أننا يمكن أن نكتشف الموهوبين فى أمتنا ونرعاهم وندفعهم إلى المزيد من الإبداع والابتكار عن طريق مؤتمر أو بحث ، أو تقرير ساعات فى الجدول المدرسى ، أو تأليف كتاب عن كيفية رعايتهم .. صحيح أن هذا وذاك من الأمور الضرورية والمطلوبة ، لكننا لابد ألا ننسى أن المحور الأساسى هو " المناخ المجتمعى " القائم .. هو السياق العام الذى نتحرك فيه ونتنفس هواءه ونحصد من نتاج زرعه ، وبالتالي فإذا كانت وزارة التربية والتعليم هى التى لها الدور المباشر ، أو كما نقول " فى وش المنفع " ، إلا أن الأمر لابد أن يكون شأنا قوميا عاما تتضافر على طريقه مختلف الجهود والتنظيمات ، حتى فى داخل وزارة التربية نفسها ، بإداراتها وسلطاتها وتنظيماتها ومناهج مدارسها وأشكال الثواب والعقاب فيها وامتحاناتها .. وهكذا .

إن الله عز وجل ، مثلما ملأ الأرض والسموات بأشكال وصور لا حصر لها من " الثروة المادية " ، فقد أودع في الإنسان نفسه كنوزا أيضا يصعب حصرها من ثروة من نوع خاص هي تلك القدرات والاستعدادات الخاصة التي نسميها أحيانا بالمواهب . ومثل كل ثروة ، فهي تحتاج إلى اكتشاف ، كما استكشفنا النفط والحديد والذهب وغير هذا وذاك من معادن ، ثم هي في حاجة إلى استغلال واستثمار ، والاستغلال والاستثمار يقوم بالدرجة الأولى على ما أسمىناه بالسياق المجتمعي العام ، ولعل خير مثال يمكن أن نسوقه على ذلك هو مدى ما يشيع في ثقافتنا وتربيتنا وممارساتنا السياسية من قيم ديموقراطية ، فمناخ الحرية هو أكثر الأجواء صلاحية لنمو بذور المواهب ، والحديث في هذا الشأن يطول !

ومن الأمثلة الأخرى ، مختلف النظم الإدارية القائمة في كل المواقع ، فإلى أي حد تشجع الرؤوسين على تحمل المسؤولية والقدرة على المبادرة ، والإقدام على الحلول الابتكارية ؟ ذلك أن دراسة سريعة لعينة من هذه القوائين في إدارتنا تشير إلى أننا نفعل العكس ، فنتعامل كثيرا مع الرؤوسين باعتبارهم متهمين إلى أن يثبت العكس ، وباعتبارهم " قُصر " يحتاجون إلى الإرشاد الدائم والمتابعة وإلا أفسدوا كل شيء !

• الميدان ، في ١٨/٤/٢٠٠٠

عندما يحس الإنسان التواقي. القادر فينا بسميه فيه !

جاء صوته عبر الهاتف إلى مسامعي وأنا أشعر بأنه يكاد يزغرد فرحا ،
وم لا ؟ فهو يبشرني بأن مولودا علميا جديدا له ، كنت قد شاركته في الحلم به ،
قد خرج إلى النور ، جامعا بعض ما كتب في مناسبات متفرقة ، دافعا إلى
المجموعة الثانية من كتاباته المتفرقة السابقة كي أقدم لها ، راجيا ألا أفعل ما
فعلته في المجموعة الأولى من تقديم ، من حيث إدارة الحديث حول شخصه ، وبدلا
من ذلك ، رجاء منه لي بأن أركز على المحتوى الخاص بمجموعة الكتابات
الثانية .

والحق أنني شعرت بقدر غير قليل من الفخر أن يخصني أخي الكبير الدكتور
سيد عثمان بأن أكتب مقدا للقراء مجموعته الثانية ، وهو الأعلى منى مقاما
علميا وأرفع شأنًا فكريا ، وفي نفس الوقت فقد وضعنى فى مأزق حقا وهو : كيف
أستطيع أن أغفل الحديث عن سيد عثمان وأنا أكتب عن كتاباته ؟ إن ذلك يمكن أن
يتحقق بالنسبة لكثيرين وخاصة فى الأعمال العلمية بالأسلوب التقليدى الشائع ،
التي هى تلخيص أو إعادة صياغة لتراث علمى فى مجال بعينه ، لكن ماذا يمكن أن
أفعل بالنسبة لكتابات كاتب ليست جميعا لقراءات ، وليست تلخيصا لأفكار ، وإنما
هى بالفعل بمثابة تلك الرائحة التى نشمها عندما نميل بأنوفنا تجاه زهرة فل أو
ياسمين أو غير هذا وذاك من تلك الزهور والرياحين التى تبث فى الجو عطرا ذكيا
؟ هل يمكن أن نتحدث عن رائحة أى منها بمعزل عن الزهرة نفسها ؟ ومع ذلك فهى
أنا ذا أحاول ، لا عن اقتناع ، وإنما استجابة لإلحاحه هو . . .

فأبرز ما لمست بعد قراءتى للوراق الحالية أن المؤلف قد يبدو أمام قارئ
بعض كتاباته أنه مغرق فى " جوانيته " ، حسب تعبير أستاذنا الراحل د. عثمان
أمين ، فروح الشاعر ، والفنان ، والصوفى ، التى لا يخطئها قارئ ، تتسم بالذاتية
، لأنها نتاج إبداع وابتكار ، وهذا أمر لابد أن يجرى مفعما ببصمات شخصية المبدع
وهوموه الفكرية والعلمية . لكنك ما أن تمضى فى كتابات أخرى حتى تجد نفسك
أمام ذات مثقلة بالهم العام ، فهى بالفعل " ذاتية ناضجة " ، تجد حقيقتها فى
مسئوليتها عن " الآخر " ، وتجد مواتها فى الانحباس داخل كهف الذات .

كان فلاسفة الوجودية ، وعلى رأسهم جان بول سارتر يقول " أن الجحيم هو الآخر " ، فإذا بسيد عثمان يؤكد أن سعادة الفرد الحقيقية تكون بقدر ما يشعر به في جوائيته بالأخر ، يفرح بفرحه ، ويحزن لحزنه ، ولا يقف موقفا سلبييا في هذا وذاك ، بل يحمل على كتفيه " المسؤولية الاجتماعية " لكي يشارك فيما يفرح الآخر ، وما يبعد ما يحزنه عنه ، حتى أنني لم أجد عنوانا لتقدمي يصيب الهدف في التعبير عن جملة كتاباته أبلغ من عبارة وردت في مقال له .

وذاتية الكتابة عند سيد عثمان تتحرك وفق قيود وضوابط وقواعد علمية صارمة ، لكنها تبعد عن برودة تشيع في المنهجية العلمية عند كثيرين ، فإذا بها تمتلئ حيوية وتفاؤلا وحرارة بغير أن تحيد عن " الصراط المستقيم " ، وسواء العلمي أو الأخلاقي ، وهكذا نجد الخطوط العريضة التالية :

- فهو يهتم " بالكبار " ، ويحس هذا الاهتمام من خلال هذه الرؤية " الإنسانية " التي لا بد أن تقوم على " أن يحس الإنسان فينا بالإنسان فيه " ، فهي ليست مسألة " إضافة " كم جديد لجيش المتعلمين ، ولا هي مجرد مسابرة لنزعة النظر إلى الإنسان باعتباره " موردا " ضروريا للتنمية ، ذلك أنه عندما " يحس الإنسان التواق القادر فينا بسميه فيه ، عندئذ نفسح مجالات الإمكانيات والقابلية ونعطي القدرة فرصة تعمل عملها في تحقق الإمكانيات والقابلية " .

وهو في هذا لا ينسى ذاتيتنا الحضارية فينتهز الفرصة ليشير إلى أن ما لدينا من معلومات وبيانات عن الكبار ، هي نابعة من بحوث أجنبية . يشير إلى هذا لا للدعوة إلى مخاصمة مع الغرب العلمي والحضاري ، وإنما " أن لا نقف عند نتائج هذه البحوث ، وأن نفيد منها بقدر وبحكمة ، ومسئوليتنا أن نضيف إليها بثقة ، حتى نطبق ما نفيد وما نضيف بطمأنينة " .

- وعلى الرغم من قصر كلمات مؤلفنا عن " عزة الأستاذية " أشعر بأنها كلمات تفوق كتابا بأكمله ، حتى لأحار حقا : أي أفكارها وجملها أختار ؟ فكلها مما يجب أن تحلل كلماته ويعقب عليه ، مما قد يُخرج هذه المقدمة عن حدودها . ولا أدري ، لماذا هذا الشعور الذي طغى على وأنا أقرأها ، فكأنى أقرأ وصفا من سيد عثمان عن سيد عثمان ، وهو لا يدري ، ذلك أن معرفتي به جعلتني أوقن بأن هذه الكلمات لا تنتثر مبادئ متعالية على الواقع ، أو هي من قبيل ما يجيء على ألسن

كثيرين وأقلامهم ، حيث " يقولون ما لا يفعلون " ، فهو هنا يقول ما يفعل بالفعل ، وخاصة ما أشار إليه من حيث العلاقة بالسلطة السياسية التي وقع في شباكها كثيرون " كبار " سعيا وراء ما تصوره "عزة" وعلو شأن ، فإذا بهذا الصنف الذي نراه أمامنا كثيرا يهرول أصحابه إلى عتبات السلطان والوقوف على أبوابه ، بينما العالم الحقيقي هو الذي يملك " قوة الاستغناء " والذي يدرك (ويسلك وفق ما يدرك) أن عزته تكمن في ذاته ، تتحرك معه أينما يكون ، ولا يستمدها من قعوده على حجر السلطان ، ولا يكتسبها بمصاحبتة !

- وهو ينبه إلى تلك الآفة في حياتنا الاجتماعية والتي تتبدى في إعلان تقديرنا لهذا العالم أو ذاك ، هذا المفكر أو ذاك ، غالبا بعد مماته (1) ، فيقول سيد عثمان :
" . . . أولى بنا أن نقول له وهو في شوقه إلى حب الآخر ، وظمئه إلى تقديره ، أولى بنا وأولى أن نقول له : " أنت " بدل أن نقول له : " كنت " !

- ولعلنا نعي جيدا قول المولى عز وجل " لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " ، ففي هذا تأكيد على أن " الداخل الإنساني " هو نقطة الإطلاق إلى النهوض ، ومن هنا تجرّ كلمات سيد عثمان : " تبنى حضارة الإنسان أول ما تبنى في داخل الإنسان ، بنية الحضارة هي بنية ذات الإنسان الداخلية منعكسة على الخارج " ، ووجود الإنسان الداخلي - في غالبه - وجود لغوي ، مما يوجب " تخطيطا لغويا " سعيا نحو نهوض حضارى ، لا ينبغي أن يقوم فقط على التخطيط الاقتصادى .

- حتى وهو يكتب عن قضية علمية جزئية (الفعل المثير - الخالص عند " هل ") ينتهز الفرصة ليسجل إيمانه بهذا المبدأ الرائع " الحرية والطمأنينة شرطا للإبداع في العلم " ، ومن ثم فرجل العمل لا يبدع إلا وهو حر ، وهو لا يبدع إلا وهو مطمئن ، وهكذا نفهم عظمة قول المولى سبحانه وتعالى ، وهو يعدد نعمه على " قريش " حيث يشير إلى أهم حاجتين بشريتين : " الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف " ! والجائع لا يستطيع أن يمارس حرية حقيقية لأن إرادته ستكون مرهونة بإرادة من يطعمه !

- ويتجلى وعى سيد عثمان الاجتماعى فى إجابته أن يعنى المربى بالبيئة الاجتماعية التى ينتمى إليها " لأن المربى فيلسوف مجتمع ، لابد أن يكون على

دراية عامة بالبيئة الاجتماعية حتى يحسن تصور وصياغة مسدّتها ، ويحسن توجيهها ، من خلال ناشئة المجتمع نحو هذا المستقبل " .

- وإذا كان يشيع لدى البعض أن البحث العلمى أمر فردى ، فإن مؤلفنا يؤكد أن التقدم العلمى لم يعد مسئولية فئة مغلقة أو عبقرى منفرد ، بل " كان العلم منذ بزوغه الأول على مشارف فجر حضارة الإنسان اجتماعيا وجماعيا نشأة وقصدا وسبيلا . . . " .

- والمفاجأة الكبرى حقا هي تلك المقالات التى سبق أن نشرت لسيد عثمان فى النصف الثانى من الخمسينيات وقبل أن يغادرنا إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى بعثته للحصول على درجة الدكتوراه ، ولربما لا تكون تلك مفاجأة بالنسبة لمن يعرف حقيقة سيد عثمان ، فالمقالات كانت تنشر فى مجلة رصينة كان يصدرها الراحل العظيم " أمين الخولى " باسم (الأدب) . فهناك من يتصور أن المنشغل بالبحث العلمى قد لا يكون له فى مجالات " الأدب " ، لكن سيد عثمان يثبت أن الاهتمام بالأدب إنما هو إعلان مبكر عن ذلك الشوق الداخلى للغوص فى أعماق الذات الإنسانية من خلال علم النفس ، ويعطن فى الوقت نفسه أن صاحبنا ذا معمار لغوى خاص ، مهما كانت الفكرة التى يريد أن يعبر عنها ، علمية خالصة أو اجتماعية ، أو ثقافية ، فهو " المقصدار " الذى " يفصل " لها ثوبها اللغوى القشيب المناسب على " قد " جسمها :

• فهو يرد على كاتب يتهم ما سماه بالأدب التأملى بأنه " باهت " مؤكدا أن الأدب التأملى ليس أدبا قائما بذاته ، بل إن التأمل عنصر لازم وملزم لكل ألوان الأدب .

• وهو ، قبل أن يشيع القول بما سمي " بالشفافية " التى أصبحت ضرورة فى عصر المعلوماتية ، يؤكد على " حق المعرفة " عام ١٩٥٧ .

• ويكتب ، وهو لم يزل بعد يحبو على طريق الفكر ، معارضا ما كان طه حسين قد كتبه فى مجلة " المجلة " فى يوليو ١٩٥٧ عن الثقافة بأنها المعرفة المكتوبة ، مؤكدا على أن هذا يغفل عن وجه آخر هو ثقافة الرجل الشعبى التى تتبدى فى صور شفافية ، ثم يثنى بمقال آخر عن واجبات رآها ضرورية نحو ثقافتنا الشعبية ، وخاصة إدخال عناصر هذه الثقافة فى برامجنا التربوية ، يقول هذا فى وقت لم

تكن فيه الثقافة الشعبية قد عرفت ما عرفته الآن من حيث اختصاصها بعدد لا بأس به من الدراسات الجامعية الأكاديمية .

• وإذا كان سيد عثمان قد وقف ليناقدش رأيا قال به طه حسين ، معارضا إياه ، فهو يكتب كذلك معارضا رأيا كتبه الناقد الكبير الراحل د. محمد مندور ، فمندور يصنف التيارات الفكرية والأدبية على أساس فكرة سابقة عنده ، وليس على أساس استقراء شامل للحياة الفكرية والأدبية المعاصرة .

• وهو يكتب كذلك عن التغيير وأزمة الأدب المصرى الحديث مبرزاً أن هذه الأزمة ترجع إلى ذلك النزوع إلى التبسيط وإرجاع الظاهرة إلى سبب واحد نسرف فى تأكيد أن لا سبب غيره .

• وأخيراً ينبه سيد عثمان إلى منهج لا ينظر إلى الشخصية الإنسانية المعتلة على أنها غير سوية فى جميع جوانبها ، إذ أن فى كل شخصية جانباً أو جوانب من القوة والصحة يستطاع الكشف عنها وتتميتها وتدعيمها ، وتطبيقاً لهذا يقدم سيد عثمان بعضاً من مظاهر إيجابية الضمير المصرى من خلال بعض الأمثال الشعبية . وفى نهاية المطاف ، لا أريد أن أستحوذ على وقت للقارئ أفضل له أن ينفقه بالالتفات إلى " الأصل " الذى حاولت أن أصوره . . إلى هذه الباقية الزاهرة فى دوحة الأستاذ العالم ، المفكر ، الأديب : سيد أحمد عثمان .

* تقديم لكتاب العالم المبدع د. سيد عثمان

فرعون التعليم فى مصر !

" ونادى فرعون فى قومه قال أليس لى ملك مصر ؟"

فى يوم من أيام أغسطس عام ١٩٩٤ استقل صاحبنا سيارته متوجها إلى الإسماعيلية وفيضان من البشر والسعادة يكاد أن يغمر كل خلية من خلايا جسمه وعقله وقلبه ، ولم لا ؟ فالأيوم يشهد عُرسين : عُرس خاص بفلذة كبده الذى سوف يعقد قرانه هناك فى المساء ، والآخر خاص به هو فى الصباح ، فلقد درجت إحدى الجمعيات العلمية على أن تدعوه فى مؤتمرها السنوى فى ندوة ، واليوم مؤتمرها ، وهو يشعر دائما وكأنه سوف يُزف إلى الجمهور كلما وجد نفسه متحدئا إليه فى هموم التعليم المصرى . . . مشاعر فرحة وسعادة تطير به إلى سماء لا يطار لها على جناح ولا يُسعى على قدم !

بدأت الندوة ، وعندما جاء دور صاحبنا بدأ يبسط أمام الجمهور ما حمله معه من وثائق . . . إحصاءات من آخر تقرير للتنمية للبنك الدولى ، ومجموعة من التقارير الرسمية الشهيرة فى تاريخ التعليم فى مصر : تقارير على مبارك ، أحمد نجيب الهللى ، على ماهر ، محمد حلمى مراد ، مصطفى كمال حلمى ، عبد السلام عبد الغفار ، أحمد فتحى سرور . بدأ بالإشارة إلى أنه ما من تقرير رسمى فى تاريخ التعليم فى مصر صدر باسم رئيس الدولة إلا فى الفترة الأخيرة (مبارك والتعليم) ، وفى هذا علامة ومؤشر على نوع التفكير الحاكم لمسيرة التعليم فى مصر : التفكير التكفيرى .

ولم يقف الأمر عند حد التسمية . . . ففى معظم الصفحات ، ما من فكرة إلا وينسبها للسيد الرئيس ، والنتيجة ؟ النتيجة أن وزير التربية يُحصن نفسه ضد النقد ، فما دام كل ما فى التقرير بدءا من صفحة الغلاف منسوباً للسيد الرئيس فكيف يتأتى لأحد أن يشير إلى موضع هنا أو موضع هناك بأنه غير حقيقى وأنه مجانب للصواب ؟ إنه إن فعل فكأنه يذكر السيد الرئيس بسوء وهذا أمر لا بد أن يدفع المحلل إلى التفكير أكثر من مرة ، لينتهى إلى إثارة السلامة رافعا شعار : السكوت من ذهب !

إنه نفس المنطق الذى يحكم تفكير جماعات التطرف الدينى . . . فهم فى كل ما يقولون ويحكمون ويرون ، يقرنون هذا وذاك بأن الإسلام يقول كذا ويحكم بكذا ويرى كذا ، فإذا رأيت أن هذا الذى يقولون ويحكمون ويرون لا يتفق وما تقتنع به ضاقت بك السبل ، لأنك لا بد وأن تكون بناء على هذا مخالفا للإسلام ، وبالتالي فأنت كافر ، وما دمت كافرا فلا بد من توقيع حد الردة عليك ! ولو قال الواحد منهم أن ما يقول أو يحكم أو

يرى هو رؤياه هو وتفسيره هو واجتهاده ، يُرفع الحرج من عليك ، ولا تصبح كافرا. إذا ناقضت أو اختلفت ، فهم رجال ونحن رجال ! وهذا هو الذى حدث مع صاحبنا بالفعل ، أصبح فى نظر السيد الوزير من الكافرين وطنيا .

وتعجب أن يذهب واحد إلى الوزير حاملا شريطا مسجلا عليه كلام صاحبنا ، فهل كان الوزير حريصا على أن يسجل له هذا وذاك ممن يختارهم أو من يتطوعون بذلك ما يجرى فى المؤتمرات كى يسمع الآراء التى تقال والمناقشات التى تجرى فيفيد منها ويستتير ، حيث لا تسعفه ظروفه أن يحضر مثل هذه المؤتمرات التى تعقد خارج القاهرة؟ !

وشرعت السيوف على رقبة صاحبنا ، والتهمة وفقا لمنطق التكفير والتطرف الدينى : أنه يسئ إلى السيد الرئيس ، وأن المسألة لو كانت نقدا للوزير نفسه ، فهو يقبل هذا ، أما أن يسئ صاحبكم إلى السيد الرئيس ، فهذا غير مقبول ! ويضرب صاحبنا كفا بكف متعجبا من قلب الأمور . .

لم يفكر سيادة الوزير فى أن يستدعى صاحبنا ويسمع منه مباشرة ويسأله ويسمع وجهة نظره ، وإنما اعتمد على " السماع " من " البصاصين " ، كتبة التقارير . إنه ليس مجنوننا حتى يقف من وراء ميكروفون وأمام الجمهور لينطق بسوء يمس السيد الرئيس ، وإنما كان الوزير نفسه هو المقصود بالنقد . . لماذا فى كل ما ينطق ويكتب يقرنه دائما بأن هذا وذاك إنما هو من توجيهات السيد الرئيس ؟ إنه من المنطقي أن الوزراء " معاونون " لرئيس الدولة وينفذون السياسة العامة للدولة ، لكن لكل واحد منهم أساليبه ومنهجه واجتهاده ، وبالتالي فليس هناك من داع لحشر اسم السيد الرئيس بهذه الصورة المتكررة فى كل كتابات وأقوال وتصريحات الوزير ، وتوجيه النقد إليه بهذا الأمر المشهور عنه والذى هو موضوع ملاحظة كل الناس وتعليقاتهم ، لا يمس السيد الرئيس من قريب أو من بعيد !

بل إن صاحبنا ليذكر نوعية من طلاب البحوث ، يأتى الواحد منهم ليقرن حديثه إليه دائما بـ " سعادتك " و " سيادتك " و أنه لا يفكر إلا فى ضوء ما يقوله الأستاذ ، وإذا ما طلب صاحبنا رأى هذا الواحد ، يسرع بالرد : " اللى تؤمر به سعادتك " ، فينتفض صاحبنا صارخا فى الباحث أنه لا يسعد بمثل هذه النوعية . . أريدك صاحب موقف . . أريدك مستقل الرأى حتى لو خالفتنى " ، فيسرع هذا الصنف بالاستعاذة بالله أن ينطق لسانه بما يخالف صاحبنا ، وأين نحنن منك يا أستاذ ؟ ويكون رد صاحبنا الأستاذ أن يصرف مثل هذا الطالب ، على أساس أنه لا يُرجى منه خير !

بهذا المنطق نفسه يكتب صاحبنا ويتحدث ، من موقف الناقد لما يحدث ويقال ، دون أن يدور بخلده أبداً أنه بذلك يكون خائناً لمصر وعلى غير ولاء للسيد الرئيس ! بل ينطلق في نقده من أن هذه هي أمانة الكلمة ، وأن صديقك هو من صدقك القول لا من صدقك . بل إن صاحبنا يذكر أنه في معظم سنوات الثمانينيات كان يكتب كثيراً ، ومعظم كتاباته تنطلق من موقف مخالف لبعض تصريحات ومواقف السيد الرئيس ، وهو يقر ويعترف أنه ظل حر الكتابة لم يمسه سوء بأي صورة من الصور ، مما جعله يسجل شهادته بسعة صدر الرئيس وأفقه ، وكان يتلقى ، عقب بعض المقالات الحادة ، مكالمات من بعض الزملاء والأصدقاء يطمنون أنه لم يعتقل أو يفصل ، فلا يجدون شيئاً من هذا ، ويتعجبون ، لكن صاحبنا كان مطمئناً إلى أنه ما دام غير مرتبط بهذا الفريق أو ذاك ، بهذه المصلحة أو تلك ، وما دام يعبر عن رأيه الخاص بكل أمانة وصدق ، وأنه لا يحمل سلاحاً وإنما ورقاً وقلماً ، ويبتغى كشف عيوب يراها ، فلن يُصَلب ، أو تعلق له المشاتق!

وإحار صاحبنا : كيف يكتب عدة سنوات ، وفي صحف تقرأ عبر آلاف من القراء ، ويتجه بنقد مباشر وصريح إلى أعلى سلطة في البلاد ، ولا تتخذ مؤسسة الرئاسة إجراءات مضادة تجاهه ، بينما يضيّق صدر الوزير ويصدر عليه حكم بالتعذيب والملاحقة والمحاكمة لأنه تحدث أمام بضع عشرات في مؤتمر مغلق نقداً لوزير ؟ وأي وزير ؟ وزير مسئول عن تنشئة أجيال وتربية ملايين من أبناء مصر المستقبل .

وبعد مؤتمر الإسماعيلية المذكور بفترة ، استدعاه رئيس الجامعة التي ينتسب إليها ، وسأله : أنت مزعل الدكتور حسين منك ليه ؟ ورد صاحبنا بسؤال آخر : دكتور حسين مين ؟ فهو لم يدر بخلده أبداً المقصود ، فرد رئيس الجامعة : د . حسين بهاء الدين (حيث كان أيضاً وزيراً للتعليم العالي) ! وكان لا بد أن يسأل صاحبنا : مزعله في إيه ؟ فيرد رئيس الجامعة : إنه يقول أنك هاجمته في المؤتمر . ويرد صاحبنا بتذكير رئيس الجامعة بأنه حضر مؤتمرين سابقين في مناسبتين مختلفتين ولمس بنفسه كيف أنه ربما يكون حاداً في نقده ، لكنه لا "يهاجم" إلا إذا اعتبر النقد العلمي والفكري المستند إلى الدليل والبرهان هجوماً ، وبالتالي فهذا الذي يقال : شرف لا أذعيه وتهمة لا أنكرها . . ثم بدأت الحرب . .

وكان صاحبنا يرأس جمعية علمية كانت تعقد مؤتمراً سنوياً وتقيم ندوة استضافت معظم مفكرى مصر على مدار عشر سنوات ، فكان لا بد من إقصائه . . اللعبة نفسها التي حدثت في بعض النقابات . . دفع بعض طلاب المنافع بالشكوى ، ثم التحقيقات ، ثم

الحل ، وحتى لا يخرج صاحبنا من المعركة "شهيد فكر" كان لابد من تلوين السمعة وتلطيح الاسم . .

كانت جامعة إقليمية قد أعدت تكريما له ضمن فعاليات مؤتمر لإحدى كلياتها ، فكان الأمر بإقصاء صاحبنا وإلا ألغى المؤتمر ، وشاع ذلك في كل الكليات ذات التخصص الذي به صاحبنا ، وبعد أن كان الجميع يتكالبون على دعوته ، أصبحوا يتجنبونه حتى لا يفضبوا السيد الوزير . .

كان أمينا للجنة العلمية للترقية إلى وظيفة أستاذ ، فلما أعيد تشكيلها كان لابد من إقصائه تماما ، وطوال سنوات ثلاث كان ممنوعا من أن يحول إليه أى إنتاج علمي لفحصه . . .

كانت كثير من الصحف الكبرى تفتح لمقالاته صفحاتها ، فإذا به يرسل المرة تلو المرة ، فلا ترى مقالاته النور ، إلا ما ندر ، وشريطة أن تكون فى غير التعليم ، ولما سأل أكثر من مرة فى أكثر من مؤسسة صحفية عن السبب ، كانت الإجابة الشائعة أنه من غير المعقول التضحية بطباعة كتب مدرسية بملايين الجنيهات من أجل نشر مقال لهذا المذكور أيا كان مقامه .

كان له عمود أسبوعى فى إحدى الصحف وبعد أن استمر يكتبه أكثر من عام ، كتب مرة عن قضية هامة تمس نهج السيد الوزير ، فإذا بالصحيفة تعتذر بعد ذلك عن عدم مواصلة العمود الأسبوعى ، وكان السبب واضحا لا يحتاج منه أن يسأل عنه ، خاصة وأن هذا تكرر فى صحف ومجلات أخرى .

تحدث مرة مع أحد زملائه الذى كان عميدا لإحدى الكليات الإقليمية ، فإذا بالرجل يشكو هو الآخر من إقصائه بعد ذلك عن العمادة لأنه لم يحقق طلبات د . بهاء غير السليمة ، وحدثه أيضا عن عميدة لإحدى كليات القاهرة حدث معها الشئ نفسه ، واضطر الرجل أن يغادر مصر كلية ، وهناك فى إحدى الدول لم يعش طولا . . مات محسورا ، وكندا مقهورا .

كان الجامعيون فرحون بطاقة نور وحيدة أتاحت لهم فرصة ممارسة ديمقراطية عندما كان لأساتذة كل كلية أن يختاروا عميدهم ، فأغار د . بهاء على هذه الطاقة الوحيدة ، وأصبح العمداء يشغلون وظائفهم بالتعيين ، وانفتح الباب على مصراعيه لممارسات مؤسفة من النفاق وخفض الرؤوس والدس وتقارير الأمن لدى كثرة غالبية زحفت على التعليم الجامعى منذ صدور القانون فتسمت أجواء وتقطعت علاقات واتزوى الذين لا يسايرون . .

ومن أجل أن يلهي الناس عما فعل أغدق الكثير من المكافآت المالية على أعضاء هيئات التدريس ، مكافآت الامتحانات ، وحضور الجلسات ، وفحص الإنتاج العلمي . . . وهكذا ، فانبهروا بهذا الفيض المالى ، وضاعت من بين أيديهم تلك فرصة للممارسة الديمقراطية : " فاستخف قومه فأطاعوه " الزخرف/ ٥٤

كانت نوادى أعضاء هيئات التدريس برلمانات جامعية حقيقية ، لكنها فيما يبدو أزعجت المعادين للديموقراطية ، فكان من الضروري من تفرغها من شعبيتها وديموقراطيتها ، فحوصرت فى العهد البهائى بأساليب متعددة حتى تحولت إلى مجرد " كافتيريات " لا حول لها ولا قوة .

وتسأل : لم كل هذا ؟ " قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى " غافر / ٢٩

ومنذ شهور قليلة دعيت للمشاركة فى برنامج متميز يقدمه فى القناة الثالثة مذيع ممتاز هو عاصم بكرى بعنوان (الملتقى) ، وكان لمناقشة عدد من قضايا التعليم فى مصر ، وكان يشاركنا فى هذا اللقاء كوكبة بارزة على رأسها د. محمود محفوظ باعتباره رئيسا للجنة التعليم بمجلس الشورى ، وأبو العز الحريرى ، النائب بمجلس الشعب ، عن حزب التجمع ، ود. حسام البدرأوى ، رئيس لجنة التعليم بمجلس الشعب ، ورجب شرابى وكيل أول وزارة التربية ، ود. وليم عبيد أستاذ المناهج بتربية عين شمس ، وكان البرنامج على الهواء مباشرة .

وقبل البرنامج دار حوار سريع حول الموضوعات التى سوف تطرح . تبين أن من الستحيل تغطيتها فى حلقة واحدة ، ومن هنا سأل المذيع كل واحد منا عما إذا كان وقته يتيح له المجئ مرة أخرى فى موعد إذاعة البرنامج وهو يوم الخميس ، بينما كان فى المرة الحالية يوم جمعة استثناء ، واتفقنا بالفعل على المجئ فى خميس الأسبوع التالى ، وأتينا لن نحتاج إلى من يذكرنا بهذا الموعد .

بدأ البرنامج ، فلما وصل الحديث إلى كاتب هذه السطور كان خلاصة ما قلته أن المشكلة الأساسية فى مصر هى أن الخطاب الرسمى فى التعليم يحتاج إلى الالتزام بمبدأ الشفافية بحيث يجئ الكلام مطابقا للواقع ، وضربت مثلا بأننا قرأنا تصيحا رسميا بأن ما ينفق على التعليم الآن هو ما يقرب من العشرين مليارا من الجنيهات ، بينما ما أنفق على التعليم عام ١٩٨١ هو ٣,٥ مليار ، وأن هذا علامة تطور مذهل !

إن مثل هذه الأرقام عندما تساق بهذه الصورة يصدقها الجمهور العام الذى لا يقف عادة أمام الأرقام محلا إياها ، رابطا بينها وبين بعض المتغيرات الأخرى كى يكشف عن دلالاتها الحقيقية ، لكننى ، بحكم عملى أحسست بأن الصورة مخالفة تماما للواقع ، بل إن هناك من عوام الناس من يدلهم الحس الفطرى على أن هذا غير صحيح ، فإذا قلت

لواحد إن دخله الآن مائة جنيه ، بينما كان دخل آخر ، فى مثل سنة ، خمسة عشر جنيها ،
صاح على الفور : لا تنس كم كان سعر كيلو اللحمه زمان !

ولتحليل الأرقام التى ساقها التصريح الرسمى رجعت إلى عام ١٩٨١ لأجد أن الدولار
كان يساوى ما يقرب من تسعين قرشا ، أما الآن فهو يساوى ما يقرب من الأربعة
جنيها . وبحسبة بسيطة نجد أن الثلاثة مليارات جنيه ونصف المليار عام ١٩٨١
تساوى الآن ما يقرب من الخمسة مليارات دولار ، وأن العشرين مليار دولار الآن
تساوى ما يقرب من الخمسة مليارات ، فكان الإنفاق على التعليم لم يتقدم تقديما حقيقيا
عبر عشرين عاما ، على عكس ما قال به المسئول الكبير !

فماذا لو أضفت إلى ذلك أن أعداد التلاميذ قد تضاعفت عدة مرات خلال الفترة نفسها ،
فسوف تجد أن ما يخص التلميذ من الإنفاق بسعر الدولار إنما هو فى تناقص ، بل إننا قد
نجد الصورة أكثر قمامة إذا حسبنا كذلك السعر القياسى للكثير مما يستخدم فى التعليم من
مبان وأجهزة ومعدات . . إلى غير هذا وذاك .

كان حديثى مختصرا ، مركزا ، لا يحمل ولا يشير إلا إلى أرقام ، وبالتالي فقد خلا
تماما من أية كلمة من تلك التى نقول إنها أوصاف كيفية أو حديث مرسل أو اتهامات
بغير دليل ، مما أعطى للحديث مصداقية جعلت كل المشاركين لا يجدون ما يحملهم على
معارضتها ، باستثناء وكيل الوزارة ، فهو بحكم موقعه كان من المحتم عليه أن يدافع ،
وإن جاء دفاعه بطريقة غي مباشرة لا تنصب على ما سقته من حقائق وأرقام .

فى يوم الخميس التالى ، وفى الموعد المحدد الذى سبق أن اتفق معنا عليه مذيع (
الملتقى) ، ذهب إلى مبنى التلفزيون كى نستكمل ما كنا قد شاركنا فيه فى الأسبوع
السابق فى الندوة التى عقدت بصدد مناقشة عدد من قضايا التعليم ومشكلاته . ولأننى
وصلت مبكرا كعادتى ، جلست أنتظر بعض الوقت فى الاستراحة القائمة فى مدخل المبنى
، على الرغم من أن موعد إذاعة البرنامج هو موعد نومى ، لكننى فى مثل هذه الظروف
، أخالف نظامى الشخصى وأضطر إلى السهر ، مع ما يودى إليه هذا من اضطراب يحدث
لى فى اليوم التالى .

بعد دقائق قمت إلى الموظف المسئول عن تسليم تصريح بالصعود إلى الأستديو أخبره
باسمى واسم البرنامج ورقم الاستديو ، فإذا به ، بعد بحث على شاشة الكمبيوتر لا يجد
لى اسما ، فألح عليه بأن يستفسر حيث إن البرنامج على الهواء مباشرة ، ويسأل الرجل
، فإذا بالإجابة المذهلة : الاستديو مغلق ، ولا إذاعة لمثل هذا البرنامج اليوم !!

كان من الطبيعى أن أنتظر بعض الوقت فى استراحة التلفزيون متوقعا أن أرى
الزملاء الذين شاركوا معى فى الحلقة السابقة ، ويمر الوقت ولا يظهر أحد ، فما معنى

هذا ؟ معناه بمنتهى البساطة أن الجميع (باستثناء زميلي د. وليم ، حتى لا تكون المؤامرة مكشوفة) أخطروا بتأجيل البرنامج أو إلغائه (الله أعلم) ، ولم يخطرني أحد! لم أستوعب ما حدث حقيقة ، فأنا طوال اليوم قابع في مكتبي ، فلماذا لم يخطرني المعد كعادته في الاتصال بي للمشاركة ، كما لم يتصل بي بالمنزل ، وهو يعرف رقم تليفوني المنزلي ، وسبق أن اتصل بي فيه عند الدعوة للمشاركة أكثر من مرة ؟!

عدت إلى المنزل وأنا أضرب أحماسا في أسداس ، وقضيت اليوم بطوله لا أغادر المنزل إلا لصلاة الجمعة ، منتظرا تليفونا من المعد يخطرني بالتأجيل دون فائدة ، ودخلت إلى فراشي مبكرا كالعادة متصورا أن البرنامج قد ألغى أو أجل إلى أسبوع تال .

في يوم السبت ذهبت إلى مكتبي وحادثنى ابنتي تليفونيا وقالت إن البرنامج قد أذيع ليلة أمس وسألتني : لم لم اشارك فيه ؟ وسألتها عنم شارك فيه ، فإذا بكل الذين شاركوا في الحلقة السابقة هم هم ، ما عداى طبعاً د. وليم ، والذي جاء جديداً ، من نقابة المعلمين ، ولا داعى لأستاذة من كلية التربية متخصصين في التعليم ، أو لربما أقصى د. وليم حتى لا أستطيع الادعاء بأنى وحدى المقصود !

وجلست أستمع إلى جهاز التسجيل التليفوني لما قد يكون قد سجل من مكالمات ، فإذا بي أسمع صوت معد البرنامج يقول لى : د. سعيد ، نأسف لن نسجل معك اليوم !!

وبدأت ، مع الأسف أفهم متأخرا . . .

هل يمكن للمذيع أن يؤجل البرنامج مع أنه أعلن لنا وللمشاهدين فى الحلقة السابقة عن موعد الحلقة التالية ؟ وهل يمكن أن يستثنى أحدا ممن شاركوا فى المرة الأولى وظهروا أمام المشاهدين ورجاتا أن يسمح وقتنا لمعاودة المشاركة ، أم أن هناك تحركا من عل حدث بسرعة لحماية المشاهدين من أمثالى ؟

ليس أمامى إلا التخمين . . لقد أفزع ما قلته فى المرة السابقة وزارة التربية ، ولو كان ما قلته مجرد رأى ، فلربما قيل إنها وجهة نظر من معارض حاقد مثلى ، لكنها كانت أرقاما وحقائق تكشف زيف تصريحات تطلق لتزييف التاريخ وتخدير الجماهير ، وفرض الرأى السلطوى .

.....

" يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه "

عيس/ ٣٤-٣٧

لم تكن العلاقة بينى وبين شقيقى د. محمد إسماعيل على - الكاتب بجريدة الأهرام - مجرد علاقة بين شقيقين ، بل زادت على ذلك بأن كنا أصدقاء ملتصقا أحدهنا بالآخر غاية ما يكون الالتصاق طوال فترة تنشئتنا إلى أن تخرجنا من الجامعة ، وتفرق كل منا بعد

ذلك بعدة سنوات إلى حال سبيله ، بحكم سنة الله في خلقه في السعى إلى الرزق والزواج وما إلى ذلك من أمور معروفة ، فإذا بنا نتفرق في الرأي والاتجاه ، لكن تحكمتنا والحمد لله الحكمة المشهورة القائلة : " الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية " .

بل إن هذا الاختلاف كاد يصل بنا إلى حد التناقض أحيانا ، فيدافع هو مثلا ، عن العهد الساداتي ، وأنتقد أنا هذا العهد انتقادا حادا ، حتى أنني كنت مرة أحداث الأديب الراحل يوسف إدريس في أواخر الثمانينيات كي أدعوه إلى ندوة برابطة التربية الحديثة عندما كنت مسئولاً عنها ، ففوجئت به يسألني عن صحة إشاعة سمعها من البعض بأنى ومحمد شقيقان ، فلما أجبته بأنها حقيقة وليست إشاعة ، إذا به يستغرق في الضحك بصوت عال معبرا بذلك عن دهشة بالغة . والموقف نفسه حدث مع محمد ، ففي أوائل عمل د . بهاء الدين بالوزارة سألت أخى الذى أصبح صديقا له : هل صحيح أن د . سعيد شقيقك ؟ فلما أجابه بالإيجاب إذا به هو الآخر يضحك بصوت عال .

لكن معالى الوزير يأبى أن تستمر مقولة أن " الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية " ، حتى بين شقيقين ، وكان من الضروري في سبيل تسييد الرأي الواحد أن يسعى إلى التفرقة بيننا .

كانت المناسبة أن كتبت د . نعمات أحمد فؤاد تنتقد ما حدث لكل من اللغة العربية والدين في مدارسنا في العهد البهائي ، وكان من اقتراحاتها في سبيل إعادة مكاتبتها في التعليم أن تعود " الكتابيب " في الفترة السابقة على التحاق الطفل بالمدرسة الابتدائية بدلا من هذه الجريمة القومية الثقافية التي تحدث الآن ، والتي تلمسها عندا تسأل طفلا : فى أى صف أنت ؟ فيجيبك : كيه . جى . وان ، أو كيه . جى . تو ، ولم لا ؟ أليست هى حالة الاستتباع ونهجها الواضح فى مجالات شتى ؟ فلم لا يربى التعليم وينشئ أبناءنا لهذا !؟

ولم تكن الكاتبة تقصد بأى حال من الأحوال أن تعود الكتابيب بحالتها ووسائلها التى كانت عليها ، إذ لابد من إعادة صياغتها فى التنفيذ لتعكس سنة التطور العلمى والتكنولوجى والتربوى والنفسى . كتبت مقالها فى الأهرام يوم أربعاء ، فبأذا بسى أرى يوم السبت التالى مقالا للدكتور محمد إسماعيل يشن عليها هجوما قاسيا ، ولا يمر يوم آخر حتى ينطلق آخرون - قبل مضى أسبوع - للمشاركة فى الحملة على كاتبتنا الكبيرة .

كان أول ما لفت نظرى هو السرعة غير العادية فى الرد ، وحدثت ما تم ترتيبه من واقع خبرات سابقة أعرفها من خلال آخرين ، فهناك من الأشخاص من يفاجأون بتليفون من معالى الوزير يطلب منهم أن يكتبوا فى كذا أو كذا . بل لقد نقل لى صديق مشترك

عن أستاذ كبير يشكو من أنه فوجئ بتليفون عند منتصف الليل يطلب منه الوزير التواجد في برنامج (صباح الخير يا مصر) في اليوم التالي للدفاع عن سياسة الوزير . وهناك شخصيات أخرى مثل محمد لا يُطلب منها هذا الطلب المباشر ، ولكن يشكو الوزير إليهم من أن سياسته الإصلاحية تتعرض لهجوم من قوى معادية للتطوير والتغيير والإصلاح ، ومن ثم يجب على الغيورين على هذا الإصلاح والتطوير والتغيير أن يدلوا بدلوهم فتدفعهم الشهامة لأن يكتبوا !

وكتبت مقالا بجريدة الشعب بهذا المعنى مدافعا عن رأى د. نعمات . كان موقفا عصبيا بالنسبة لى حقا ، فالدكتور محمد هو شقيقى الأكبر ، وهو الذى تعلمت منه كيفية الكتابة ، ورابطة الدم والتشئة بيننا غاية ما تكون فى القوة ، لكننى آثرت أن أنتصر لما رأيت حقا ، متذكرا مقولة أرسطو الشهيرة عندما رد على من انتقدوه لأنه عارض آراء أستاذه أفلاطون ، بأن أفلاطون هو بالفعل أستاذه ، ولكن الحق أعز عليه من أستاذه . وقد حرصت فى مقالى على ألا أشير إلى محمد من قريب أو من بعيد ، لكننى فوجئت به بعد ذلك وهو يكتب ، يكاد يشير إلى صراحة بالنقد والهجوم .

وتكرر هجوم د. محمد ونقده بعد ذلك لى فى مناسبات شتى عندما كان ينشر لى مقال أنتقد فيه سياسة التعليم فى مصر ، على الرغم من أن معظم منافذ النشر فى الصحف والمجلات قد سدت فى وجهى ، ومعالي الوزير يعلم جيدا هذا الأمر ، لكنه ما زال يستكثر على أن أكتب هنا وهناك فى مثل هذه الصحف التى ، وإن لم تكن واسعة الانتشار ، لكنها والحمد لله تلتزم طريق الحق والمبدأ ، ولا تخضع لسلطوته .

وكان الذى ينبهنى عادة إلى ما يكتبه محمد نقدا لى ، بعض الأصدقاء مبدئين أسفهم أن يحدث هذا بين شقيقين ، فلا يكون لى من رد إلا أن من حق محمد أن يحب هذا أو ذاك من الشخصيات ، ويدافع عن سياسته ، ذلك أن لا أحد يمكن أن يزعم أنه يملك الحقيقة وحده (طبعا باستثناء معالى وزيرنا) ، وأن حق الاختلاف مشروع ، المهم ألا يؤدى هذا إلى توتر العلاقات الشخصية .

وبالفعل ، عندما كان أولادى يقرءون مثل هذا الهجوم ، وكذلك زوجتى ، يشعرون بقدر من الأسف والأسى ، ويكون جهدى معهم أن هذا الاختلاف والتناقض ليس أمرا شاذا ، وأن العلاقة بيننا لا بد أن تظل فى قوتها وحرارتها ، حتى لقد أشرت لهم إلى المثل العامى الشهير الذى يجرى على ألسنة أولاد البلد عقب كل خلاف : يا ناس دى المصارين فى البطن بتتخاتق مع بعضها !

بل أحيانا ما أستدعى إلى الجميع كيف أن حماتى - وهى فى نفس الوقت خالتي وحماة محمد أيضا - رحمها الله ، كانت تخوض مناقشات حادة معه تعليقا على بعض ما

كان يكتب دفاعا عن سياسات السادات ، ذلك أنها كانت مجنونة بجمال عبد الناصر ، وتكره السادات ، وهو على العكس من ذلك تماما ، ونضحك كثيرا من هذه المناقشات ويستمر الود والصفاء .

ولا أدري حقا ، هل بلغ الأمر بمعالى الوزير هذا الحد من السعى المحموم لوأد كل رأى لا يرضيه إلى الدرجة التى يسعى عندها إلى بذر بذور الشقاق بين شقيقتين ؟ كما أود أن يخلو إلى نفسه بضع دقائق ليفكر : ماذا يكون شعور أبناء إزاء عمهم ؟ وماذا يكون شعور زوجة هى أيضا شقيقة زوجة الأخ الكبير الكريم ؟ بل ماذا يكون شعور الإخوة والأشقاء وهم يرون هذا الذى يحدث بين أكبر شقيقتين فى الأسرة ؟ إن صلابة ما بيننا والحمد لله من علاقات تشعرنا بالطمأنينة ، لكن غيرنا من الناس ، نرى فى عيونهم تعليقات غير سارة يكتمونها عنا أمامنا ، لكن ، من يدري ؟ لعلمهم يتحادثون بها بينهم وبين بعضهم البعض !

وعندما كانت تشتد ضراوة الحرب التى شنها ويشنها الوزير على شخصى الضعيف ، كان كثير من الأصدقاء والأقارب يسألوننى أن أستغل صداقة أخى للوزير كى أتقى شر ما يحدث لى ، فيكون ردى : اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ، ولكننا نسألك اللطف فيه ! وأن المسألة لا فائدة منها ، ذلك لأننى لن أتوقف أبدا عن إبداء رأى بالنقد والمخالفة كلما رأيت ما يسئ إلى تعليم هذا البلد الذى أنعم الله على بأن أنشأ من ترابه وماله ، وأن أتسم هواه وأعيش على أرضه ، وبالتالى فالقضية تكمن فى مدى استمرار هذا النهج الفرعونى الشهير : ما أوريكم إلا ما أرى !!

.....

فى يوم من أيام شهر فبراير الماضى ، وفى الساعة الثامنة صباحا على وجه التقريب ، وربما قبلها بقليل ، رن جرس التليفون وأنا أعمل فى مكتبى ، كان صوت المتحدث مفاجئا لى ، فهو زميل كان يشاركنا العمل فى تربية عين شمس ، لكنه الآن مسئول مهم عن هيئة كبيرة بوزارة التربية والتعليم ، وكان أول ما قاله لى : كل سنة وانت طيب ! ذلك أن هذا اليوم كان يوم ميلادى ، وأنا عادة لا احتفل بهذه المناسبة .

وأثار هذا دهشتى غاية ما تكون الدهشة .

فمنذ ما لا يقل عن ثمنى سنوات وأنا لا اسمع صوت الزميل ، فما الذى حدث حتى يهاتفنى اليوم ؟ لقد كان هو الإنسان الوحيد الذى دأب عبر ما يقرب من ربع قرن على أن يفاجئنى صباح أحد أيام فبراير ليقول لى : كل سنة وانت طيب ، ثم انقطع منذ ما يقرب من عشر سنوات عن هذه العادة . وأصارع القارئ أننى على الرغم من عدم احتفالى بمثل هذا اليوم ، لكن الإنسان أحيانا ما تقبّع فى داخله بعض نوازع طفولية

تجعله يفرح بهذا أو بذاك ، ومن هنا فلا أستطيع أن أنكر أن تهنئة الزميل لى بهذه المناسبة كانت تسعدنى حقا .

تطرق الحديث إلى أمور شتى ، معظمها بطبيعة الحال عن كليات التربية وحال التعليم فى مصر ، وكنت ألتمس له العذر بطبيعة الحال فى ألا يعبر عن رأى ناقد لما يحدث بحكم موقعه فى وزارة التربية وقربه من وزيرها .

ثم إذا بمجرى الحديث يتجه إلى الحديث عن الوزير نفسه ، وكان طبيعيا أن يحاول الزميل تجميل الصورة ، مؤكدا أن الوزير مستمع جيد لما يقترح من آراء تسعى لتطوير التعليم ، ومن ثم فإنها مسئولية الذين يجدون لديهم أفكارا نقدية أو إصلاحية . من حيث ضرورة أن يوصلوا حديثهم فى هذا الشأن إلى معاليه .

ثم انتقل بعد ذلك إلى ضرورة أن " أجرب " ، وسوف تكون النتيجة طيبة بإذن الله . وزاد على ذلك بأن قال أنه طرح اسمى على سيادة الوزير فرحب بدعوتى ، وأن هناك بالفعل خطابا موجهاً منه شخصيا لى بذلك ، وأنه لو لا ارتباط الزميل المسئول بسفر إلى إحدى المحافظات لجاء بنفسه إلى مكتبى حاملا الدعوة ، ومن ثم فهو سوف يرسلها مع آخر بدرجة أستاذ .

كان الخطاب على ورقة عليها رسم النسر واسم مصر والوزارة ، وعلى اليمين بخط كبير " الوزير " ، ثم سطور قليلة بخط كبير تقول :

السيد الأستاذ الدكتور سعيد إسماعيل على

أستاذ أصول التربية - كلية التربية - جامعة عين شمس ،

تحية طيبة وبعد ،

رغبة من وزارة التربية والتعليم فى مزيد من تأصيل المشاركة وتبادل الخبرات فى مجال التعليم فى مصر ، يسعدنى دعوتكم لحضور اللقاء التمهيدى التاسع لمؤتمر تطوير التعليم الثانوى ، الذى سيعقد بمبنى اتحاد الطلاب بالعجوزة ، وذلك فى . . .

مع وأفر تحياتى ،

ثم توقيع السيد الوزير !

وذكرنى الأستاذ الذى حمل الدعوة بمقابلة بيننا فى مكتبى بالكلية ، حيث تطرق حديث عارض إلى أن هذه اللقاءات التمهيدية منذ أن بدأت ولم توجه لى دعوة إليها ، وهى مستمرة منذ عدة شهور ، فى الوقت الذى وجهت فيه إلى ما يمكن أن نسميه " طوب الأرض " ! ولم أسق حديثى هذا على سبيل الشكوى ، ولكن كان إجابة عن تساؤل له ، وبالتالي فقد أكد أن ليست لى بعد ذلك حجة . وحاول الأستاذ أن يفهمنى أنه صاحب المبادرة فى اقتراح دعوتى !

بعدها ثارت عشرات التساؤلات فى ذهنى ، والعديد من الاحتمالات التى يمكن أن تفسر ما حدث ، فمعرفة بنمط إدارة بهاء الدين للوزارة تجعلنى لا أتصور قدرة لمن يعمل معه على أن يقترح عليه دعوة إسنان ، عداء الوزير وحربه له مشهورة ومعروفة للقاصى والداتى فى مصر إلى الدرجة التى وصلت بالبعض أن يخشى إلقاء السلام على شخصى - خاصة عندما كان وزيرا كذلك للتعليم العالى - حتى لا يصل هذا للوزير فيصيبه مكروه ! وبالغ البعض فى إظهار سوء شخصى حتى ينال حظوة أو موقعا أو منفعة من الوزير . ثم ماذا جد على الزميل الفاضل ، بعد انقطاع يقرب من عشر سنوات ليواصل عادته فى تهنئتى بيوم ميلادى ؟

كذلك فقد عقد مؤتمر كبير عن المعلم ، على ما أتذكر ، عام ١٩٩٥ ، ثم مؤتمر آخر عن التعليم الإعدادى عام ٩٧ أيضا ، على ما أتذكر ، دُعى إلى كل منهما " طوب الأَرْض " إلا كاتب هذه السطور ، وكان قد مضى على بدء اللقاءات التمهيدية لمؤتمر التعليم الثانوى ما يقرب من ثمانية أشهر دون توجيه دعوة لى !

وهل صحيح أن سيادة الوزير يجب أن يستمع إلى ما يمكن أن أقوله من آراء ؟ فمن هو إذن الذى فعل كذا وكذا من عشرات " الأفاعيل " عبر سنوات بهدف محاربتى وتلويثى ؟ ومن الذى استطاع بأساليبه أن يسد معظم منافذ النشر الشهيرة والكبرى فى وجهى إذا كان لى بالفعل من الآراء ما يجب معاليه أن يسمعه ؟ ليس أمامى إلا أن أفترض أن هناك " عفريتا " هو الذى فعل - وما زال - كل هذا !!

وآه لو يعلم القارئ ماذا يفعل وزير التربية عقب نشر كل مقال لى به نقد موجه لسياسته ، فهل يمكن أن أصدق أنه يريد أن يسمع لى ؟

ألا تقوم عشرات المقالات التى تتاح لها فرصة النشر هنا أو هناك بمهمة التعبير عن رأى ، أم لابد أن ألقيا شفاهة فى دقائق أمام الوزير ووسط جمهور كبير أكثر من نصفه من موظفيه ؟

وما أن علم بعض الأصدقاء والتلاميذ بأمر الدعوة حتى ألحوا على أن ألبها ، وألا أضيع فرصة التقارب مع الوزير حتى تنتهى سلسلة الحروب المستمرة على شخصى ، وحتى أثبت لمن تضامنوا فى توجيه سهام والنبال على ، أننى يمكن أن ارد كيدهم فى نحورهم ، وأن أجلس على حجر السلطة مثلهم فأكسب وأربح ويعود اسمى للانتشار كما كان قبل التسعينيات ، وربما ينالنى نصيب من الجوائز الكبرى ، وأكون ضيفا على برامج التلفزيون ، وأسافر إلى هنا وهناك من البلدان .

بل لقد حاولت أنا شخصيا مرارا وتكرارا أن أقنع نفسي بالتجاوب ، لكن عجزت عن ذلك . عافت نفسي المشاركة فى " تمثيلية " توحى بالديموقراطية " كلاما " بينما هناك عشرات الممارسات التى تؤكد نهجا يقوم على تخريب التعليم والاستبداد بأمره .

وإذا كانت هناك رغبة مخلصه وصادقة فى سماع وجهة نظر أطراف أخرى فى التعليم ، فلماذا يبادر فرعون التعليم فى مصر إلى إطلاق هذه الحملات المسعورة على كل من تسول له نفسه بتوجيه كلمة نقد لسياسته ؟ وهل يعلم سيادته أن تلك الحملات المسعورة تضره أكثر مما تنفعه ، لأنها تكشف حقيقة دعوى الديموقراطية التى يحاول أن يبدو بها أمام الناس ؟ ذلك أنه ما من قلم مسموم بسلطه على من يجروون على قول كلمة صدق إلا ويتساءل الناس عن علاقته بالوزير ، فيجدون أنها حملات مدفوعة الأجر ، ودون ضرورة أن يكون الأجر المدفوع نقدا .

لقد تذكرت مقالا كنت قد كتبتَه منذ ما يقرب من خمسة عشر عاما بعنوان (حرية نباح) ، واصفا ما يقال من أن الحرية متروكة لنا فى أن نقول ما نريد بأنها لا تخرج عن حرية النباح ، ذلك أن الشعاع المرفوع الذى يقولون فيه لنا : قولوا ما تريدون ، إنما هو نصف الحقيقة ، أما نصفها الثانى فهو : وسوف نفعل نحن ما نريد ! ذلك أنك إذ تقول وتكتب وتنادى بكذا وكذا من الأفكار ، لكن لا حياة لمن تنادى ، ويظل الحال كما ، فى أحسن الأحوال ، تصبح حرية " نباح " .

فى مؤتمر تريبوى أخير ، دار بينى وبين أستاذ تربية كبير فى حزب معارض حديث عن مأساة التعليم فى مصر ، فحسى لى أنه هو أيضا قد جاءته دعوة لهذه اللقاءات المسماة بالتحضيرية ، فلما ذهب وأراد أن يتكلم ، وجد أن المتاح له دقائق تقل عن عدد أصابع اليد الواحدة ، ف شعر بأن حضوره لا يعدو أن يكون " ديكورا " حتى تبدو صورة الوزير كما يريد أن تكون " حلوة " .

ثم ، هل هذا أسلوب للتفكير فى تطوير التعليم فى مصر ، أن يحتشد جمع غفير قد يصل إلى مئات ، أكثر من نصفهم من موظفى الوزير لى يلقى هذا وذاك كلمة ؟

لقد سبق لى أن كتبت مقالا منذ ما يقرب من خمس سنوات ، فى الأهرام ، وقت أن كان مسموحا لى بالكتابة ، أنتقد أسلوب عقد مؤتمرات عامة بهدف تطوير التعليم ، وأن المسألة كانت تقتضى أولا أن تكون هناك خريطة فكرية قومية عامة . رؤية كلية شاملة لما نريد أن يكون التعليم عليه فى المستقبل ، وبعد ذلك لنا أن نأخذ فى تنفيذها تدريجيا وفقا لمراحل التعليم المختلفة ، أما أن نعقد أولا مؤتمرا للتعليم الابتدائى ، وبعد سنتين مؤتمرا عن المعلم ، وبعد سنتين مؤتمرا عن التعليم الإعدادى ، ثم تمر أربع سنوات ،

ونحن نفكر فى عقد ما يسمى باللقاءات التحضيرية ، فهذا مما يدخل فى باب العبث بالتعليم ، والعبث بمصر ، والعبث بمستقبل أبناء مصر .

.....

فعلها حسين بهاء الدين ...

وزير " التربية " بيث الفتنة بين كاتبين شقيقتين من أجل وأد رأى يخالفه ...

الوزير المسئول عن تعليم وتنشئة الملايين من أبناء مصر ينثر الأشواك على الطريق بين أبناء عائلة ممتدة بما لها من فروع ...

الوزير الذى تحمس لتعليم الأخلاق فى مدارسنا يؤسس لعلاقات بغض وكراهية وانتقام وثأر بين إخوة وأخوات وزوجات وأزواج ..

عندما وصلت إلى المقال السادس من سلسلة المقالات الحالية ، أخبرونى بأن سيادة الوزير أرسل فاكسا بصورة ما أكتبه هنا إلى شقيقى محمد إسماعيل ، حيث لا يقرأ جريدة أفاق عربية ، وكذلك صورا من الخطابات التى أرسلها دعوة لى لحضور مؤتمراته التحضيرية عن التعليم الثانوى ، فلماذا فعل معالى الوزير ذلك ؟

كانت الإجابة معروفة ، وصح التوقع ، فنشرت الأهرام لأخى مقالا حاد اللهجة ، شديد القسوة ، طعنات موجهة إلى شخصى .

وتلبدت السموات العائلية بغيوم كثيفة ، إنذارا بوقوع رعد وبرق وسيول مدمرة لا تبقى ولا تذر ..

توالى الاتصالات التليفونية من مختلف الإخوة والأبناء والأزواج والزوجات ، فضلا عن الأصدقاء والمزلاء ، وتمت زيارات ، فالكل توقع أن يكون لى رد يكون على نفس الدرجة من الشدة والقسوة فى اتجاه معاكس ضد أخى ، وبذلك تنقطع أواصر القرابة والأخوة ويبذر شقاقى ، وتنشأ خصومات ، وتبادل فى الردود الثأرية ، لتعود صورة عصرية من حرب " داحس " والغبراء " المشهورة فى التاريخ العربى .

كل هذا ، ليسعد وزير التربية .. ليهنأ وزير الأخلاق .. ليفرح وزير التعليم ، وكيف لا ؟ ألا تعد هذه معركة كبيرة من المعارك التى يشغل نفسه بها ؟ ما لنا وتعليم ملايين من الأبناء وما يرتبط بهذا من عدد لا يحصى من المشكلات والآمال ؟ نعم .. فالحالة فى التعليم عال العال ، والمشكلات تم القضاء عليها والآمال تحققت ، وتقارير الهيئات الدولية تؤكد أن التعليم منذ عشر سنوات وصل إلى درجة من التقدم لا مثيل لها فى أى بلد من بلدان العالم ، ولا فى تاريخ مصر ، وأن هذا الطابور الطويل : على مبارك ، ورفاعة الطهطاوى ، ومحمد حسين هيكل ، وأحمد لطفى السيد ، وطه حسين ،

والسنهوري ، وإسماعيل القباني ، وعبد العزيز السيد ، ومصطفى كمال حلمي ، وأحمد فتحي سرور ٠٠٠ كل هؤلاء يتوارون خجلا أمام عظمة إنجازات بهاء الدين !
كأنت إجابتى للجميع أن يطمئنون ، فلن أمكن بهاء الدين من تحقيق ما أراد ، ولا يمكن أن أترك نفسى للانفعالات ، فصلة الرحم أعز عندي من القربى من سيادة الوزير ، وليس لى إلا أن أردد ما قاله عز وجل فى قرآنه الكريم على لسان احد ابني آدم : " لئن بسطت لى يدك لتفتننى ما أنا بباسط يدي إليك لأفتلك إني أخاف الله رب العالمين " المائدة / ٢٠
إنها ليست المرة الأولى التى تشرع فيها الرماح وتسن السيوف وتحشر الرصاصات فى المسدسات والبنادق والمدافع الرشاشة ، فقد أصبح هذا أمرا معتادا منذ عام ٩٥ كما سبق أن كتبت فى المقال الأول من هذه السلسلة .

فالسيد الوزير لا يناقش رأيا ولا فكرا يجئ مخالفا لما يقول ، وإنما سياسته المستمرة : كيف يضرب فى جنح الظلام من يعتبره " عدوا " ، ضربة موجعة غاية فى الإيذاء ، لا من حيث المضمون ، ولكن من حيث الأسلوب ، فعندما تجئ الضربة الموجهة إلى الخصم ، من ضارب تربطه صلة وثيقة بالمضروب ، هنا يبلغ الألم والوجع الذورة ، فإذا كان الظلم عموما مؤلما وموجعا لكنه عندما يجئ من أقرب الناس إليك ، فإن الأمر يختلف كثيرا .

ودون عودة إلى ما رويته عن أحداث عام ٩٥ وما بعدها ، فإن وزير الأخلاق عندما بدأ يعد هجومه ، سأل عنمن هو أعز وأقرب التلاميذ إلى قلب كاتب هذه السطور ؟ ومن هو أكثر الأساتذة تقديرا واحتراما لدى كاتب هذه السطور ؟ ومن هو أقرب زملاء إلى قلبه ؟ كان هذا هو معيار الاختيار للفريق المهاجم .

ويعجب كثيرون ويتساءلون : لم لا ترد ؟ وتكون إجابتى أن اليد التى تهجم وتطعن من هذه الجهة أو تلك ، إنما هى " صورة " لأصل يخفى هناك فى شارع الفلكى ، ولن أشغل نفسى أبدا بمعارك مع " الظلال " ، ويشتد منى العزم على مزيد من كشف ما يحدث فى عالم التربية والتعليم .

وسياسة الوزير المربى هى السياسة نفسها التى عرفناها على يدى القوى الاستعمارية منذ قرون : فرق تسد ، وخاصة بين الأشقاء والإخوة والأصدقاء .
فى كثير من الأحيان يحيط الإحباط بالإحسان من حال التعليم ، فأدع القلم ، فكم كتبنا وكم بحثنا ودرسنا ، وكم صرخنا وهمسنا ، ومع ذلك ظل قطار التدهور سائرا فى طريقه ، فنشعر بأنه لا فائدة ، ويفتر الحماس للكتابة ، ثم تجئ هجمة علينا من هنا أو هجمة من هناك . . . هنا نستعيد الوعي بخطورة القيادة المسئولة عن التعليم ومدى ما تحمله من شر فريد حقا ، فيعود الحماس ، لا للرد على الظلال ، ولكن صوب الأصول . .

السياسات المخربة للتعليم فى مصر ٠٠ الأساليب الاستبدادية التى تمارس على التعليم فى مصر ٠٠ الهرم الفرعونى للتعليم فى بلادنا ٠

روى الراحل محمد عبد الوهاب فى برنامج تلفزيونى أن أستاذه الشاعر الكبير أحمد شوقى لاحظ مرة أنه مكتتب ومهموم ، ولما سأله عن السبب ، أجاب عبد الوهاب أن هناك بعضا ممن يشنون عليه حملات هجوم عنيفة فى بعض المجلات ، وخاصة من حيث أنهم قالوا أن عبد الوهاب ينقل أبحاثا غريبة إلى أبحاثه هو ، فطلب شوقى منه أن يأتى له بتلك المجلات الحاوية على هذه المقالات الهجومية ، فلما أتاه بها طلب أن يرصها بعضها فوق بعض ، فلما فعل ، طلب منه أخيرا أن يقف فوقها ، فلما وقف ، قال شوقى : انظر لقد ارتفعت وعلوت عندما جعلت هذه المجلات تحت قدميك ٠٠ قال عبد الوهاب ، أن هذا أصبح درسا كبيرا له ، ومن ثم لم يعد يكثر بمثل هذه الصور من الهجوم ٠٠ أقول الحق ، لم يكن هذا درسا لعبد الوهاب وحده وإنما لى أنا أيضا ٠

وقريب من هذا ، كان الصحفى الراحل مصطفى أمين يفتله فى أخبار اليوم فى سنواتها الأولى ، وخاصة قبل ثورة يوليو ٠٠ فعلى الرغم من تحفظات كثيرة على التوجه الفكرى والموقع الذى كانت تمثله أخبار اليوم فى عالم الصحافة فى هذه الفترة ، إلا أن أحدا لا يستطيع أن ينكر أنها كانت تمثل ثورة صحفية كان لها أثرها فى زلزلة عالم الصحافة فى مصر وتطورها من حيث الفنون الصحفية ، وكان من الطبيعى أن تتعرض إلى هجمات متعددة ، بعضها عن معارضة فكرية وسياسية حقيقية ، لكن كثرتها كانت بسبب أحقاد مهنية ، فكان مصطفى أمين " بيروز " المقالات المهاجمة ، و " يعلقها " فى مدخل الدار ، تأكيدا منه على أنه كلما اشتدت مثل هذه الهجمات فهذا دليل على نجاح الصحيفة ، ووصل الأمر به أن يقول أنه كان يشعر بقلق شديد إذا مر أسبوع دون أن يرى مقالا يهاجمه ويهاجم أخبار اليوم !

.....

فى أوائل السبعينيات أعلن قسم أصول التربية بتربية عين شمس عن حاجته إلى معيد ، فلما استقر رأى على اختيار واحد وتم له عديد من الإجراءات الضرورية بدءا من موافقة مجلس القسم ومرورا بمجلس الكلية فالجامعة ، إذا بالموضوع يقابل فى نهاية الأمر بالرفض من الجهات الأمنية !

كان العمل معيدا أملا يراود الباحث الشاب ، والذى أعجبنا جميعا بتقديراته العلمية ودمائة أخلاقه ، وكاد الشاب أن يصاب بالجنون وهو يرى أمل حياته يكاد يتحطم أمام عينيه وهو لا يعرف سببا ما لذلك ٠

أخذ كل منا ، فى أوقات مختلفة يحاول أن يعرف منه : هل ضبط مرة فى جريمة . .
اختلس . . سرق . . رشأ . . زنا . . أحرق . . إلى غير هذا وذلك مما يمكن أن يجعله
خطرا على الجامعة ؟ كانت كل المؤشرات تؤكد أن الشاب ذا صفحة بيضاء . وسعى كل
منا من جهته أن يسأل هنا وهناك ، ويحاول هنا أو هناك أن يجد مخرجا ، ففشلنا جميعا
، لأن (السبب) ظل مجهولا للجميع !
وفى غمرة الإحباط واليأس ، تفتق ذهن الشاب عن محاولة مجنونة ، لم نعلم بها إلا
بعد أن فعلها .

تربص أكثر من مرة أمام مبنى الأهرام ، إلى أن رأى مرة الأستاذ محمد حسنين هيكل
يدخل . . فأسرع ينادى بصوت عال : يا أستاذ هيكل . . ويردد النداء عدة مرات ، فأحاط
به الحراس ، لكن هيكل سمع ورأى فأمر بأن يتركوه ليصعد إلى مكتبه ويسمع منه ما
يريد ، وحدث هذا بالفعل ، فإذا بالمشكلة تحل فى أربع وعشرين ساعة وعرفنا السر
الكبير الذى كان سيحول بين الشاب وبين أن يحقق حلم حياته .

فى أوائل الخمسينيات ، كان غلاما صغيرا يلبس " الثورت " ، وكانت فى قرية ، مثل
العديد من القرى ، شعبة للإخوان المسلمين ، وكان من نهج هؤلاء القيام ببعض الأنشطة
الاجتماعية والرياضية التى لا يقصرون المشاركة فيها على من ينتسب إليهم ، فشارك
الغلام الصغير الذى لم يكن يفقه فى السياسة ، وربما ولا فى الدين ، مرة أو مرتين فى
رحلة أو فى مباراة رياضية أو فى حفل سمر ، مثل منات من الصبية والتلاميذ الذين فى
عمره ، لكنه لم يعرف أنه اسمه قد أصبح " مكتوبا " على رأى عادل إمام !

ولما عرف الشاب السبب بكى وأخذ يصرخ . . أنا كنت طفل صغير لا أعى شيئا ،
فكيف أحاسب بعد ما يقرب من عشرين عاما على هذا ؟ فهم الأستاذ هيكل القضية فافتتح
بالظلم الذى يحيط بالشباب ، وبما كان له من مكاتة ، استطاع أن يرفع هذا الظلم القاهر !
ترى ، ولو لم يجد هذا الشاب مثل هذا الصحفى الكبير الواعى ، ماذا كان يكون
مستقبله على تراب وطنه ، وهو يؤخذ بما اعتبر ذنبا كبيرا وهو برئ براءة الذئب من
دم ابن يعقوب ؟

وإذا كانت هذه حكاية مر عليها أكثر من ربع قرن ، فإن هناك أخرى ، سمعتها منذ
شهور . .

شاب تخرج من كلية تربية من أسرة تكاد أن تقع تحت خط الفقر ، انتظر ، وانتظر
أهله معه أن يتخرج ، فينتشلهم من سوء الحال الذى يعيشونه ، ثم إذا بعام يمر ، ويتلوه
آخر دون أن يتحقق الأمل بالتعيين مدرسا فى وزارة التربية والتعليم . ثم لاح الأمل ،

وإذا به يتعطل عدة شهور ، وبعد جهاد طويل في محاولة معرفة السبب ، إذا به أيضا " الأمن " .

وكررت معه المحاولات التي ذكرتها خاصة بالحالة السابقة من حيث الاستقصاء عما يكون هذا الخريج قد فعله واستوجب أن يتحفظ الأمن عليه ، فلا يستطيع أن يذكر شيئا . استطاع الخريج الذي نتحدث عنه ، بعد مجاهدة ، أن يعرف أنه مسجل عنه أنه ذو نشاط إسلامي ، أو ما يدخل في هذا المعنى ، فلما سألته عن هذا ، تبين أن جدول محاضراتهم هو السبب كيف ؟

في كثير من المرات كان جدول المحاضرات مبعثرا في ساعاته ، فيجد نفسه أمام بعض الأوقات خاليا من الدروس ، ومنتظرا أخرى ، فكان ينتهز الفرصة أحيانا ويجلس في مسجد الكلية الصغير يقرأ القرآن ويصلى ، دون أن يكون منتظما في نشاط ما مع آخرين مما يمكن أن يجعله موضع شبهة !

هذان مثالان يبينان لنا كيف يمكن أن يقع ظلم عظيم على شباب مصر ، نتيجة بعض التقارير غير الدقيقة ، بل والمجانبية في بعض الأحيان للحقيقة ، حيث قد تبنى على " الظن " والأخذ بالشبهات .

ومع ذلك ، فقد ألقنا هذا .. أن لا يتم تعيين إلا بعد الموافقة الأمنية ، لكن الموقف في وزارة التربية والتعليم لابد أن يكون ملكيا أكثر من الملك .. لابد أن يمارس قهرا وظلما ، ثم يزعم للقيادات السياسية أنه أشد ما يكون حرصا على أمن الوطن والنظام فيضمن بقاء أطول وثباتا على كرسي الوزارة أكثر ، ولا يهم بعد ذلك أن يقع ظلم على مواطنين كادحين يبحثون عن لقمة عيش يقيمون بها أودهم !

بدأت المسألة من المنبع .. قالوا ، فلنحاول أن نكتشف الطلاب الذين يلتحقون بكليات التربية ، ونعرف " المتطرفين " منهم والذين يهددون أمن البلاد بالإرهاب والعنف ، وكان ذلك عندما كان بهاء الدين وزيرا لوزارتي التربية والتعليم والتعليم العالي .

وكما يحدث عادة ، تبرع بعض الزملاء لإرضاء السلطة ، فأعدوا مجموعة أسئلة توجه للمقبولين ، من خلالها يمكن " التنبؤ " بالسلوك المتطرف ، كأن يُسأل : ما إذا كان يصلى في المنزل أو في المسجد ، وكم مرة يذهب إلى السينما ، إذ قد يقول أنه لا يذهب إليها لأنها حرام ، وقد يُسأل عن يعجبه من المطربين والمطربات ، فيقول أيضا أنه لا يعجبه أحد وأنه يرفض سماع الأغاني والموسيقى .. وهكذا ، وبالتالي يكون هذا المتقدم " خميرة " تطرف وإرهاب !

وفى الوقت نفسه ، بدأنا نشاهد عددا كبيرا من المدرسين القائمين بالعمل فعلا ، يحولون إلى أعمال إدارية ، بغض النظر عما إذا كانوا ناجحين وموفقين فى تدريسيهم ، والحجة ، هى أنهم " متطرفين " ، ويخشى منهم على الطلاب أن يشيعوا التطرف بينهم . لكن كيف يحكم على هذا المدرس بأنه متطرف ؟ هنا بطبيعة الحال لابد أن يكون عن طريق " الأمن " ، فهل هذا الطريق " آمن " فعلا فى كل الأحوال فى مثل هذا المجال ؟ إنها أصبحت مسألة شبيهة بما كان يحدث فى الولايات المتحدة فى أوائل الخمسينيات التى سميت " بالكارثية " حيث كانوا يحاربون الاتجاه الاشتراكي عامة والشيعي خاصة ، وفى ظل هذه الهجمة الشرسة التتارية ، كم من صور ظلم وقعت على كثيرين بغير أن يشككوا خطرا بالفعل على الولايات المتحدة ، على الرغم مما هو معروف عن مجتمعا من " ديموقراطية " وشفافية .

وحدث مثل هذا أيضا فى أواسط الخمسينيات فى مصر إلى الدرجة التى كان فيها بعض إخوة أقباط يعتقدون بشبهة أن يكونوا من الإخوان المسلمين ، حتى لقد شاعت نكتة يقولون فيها أن " قراديتيا " كان يقوم بألغابه فى مقهى ، فلما جاءت هجمة أمنية ، هرب القرد من صاحبه ، فأخذوا يطاردوه حتى أمسكوا به وسألوه لماذا خاف وهرب مع أنه " قرد " ؟ أجاب " حلنى على ما يثبتوا إننى قرد " !!

لكن السؤال الحقيقى : ما هى المعايير التى يمكن بناء عليها أن نحكم على هذا المدرس أو ذاك بأنه بالفعل متطرف ؟ وهل التطرف مقصور فقط على السلوك الدينى ؟ ألا يمكن أن يكون هناك تطرف فى السلوك " الدنيوى " كذلك ؟ فهل هذا أيضا يعامل نفس المعاملة ؟

إننا لا نريد أن يزايد أحد على الوطنية ، فنحن لا نقل حرصا على أمن مصر ، ولكن السؤال هو : من أين يجئ التهديد لهذا الأمن ؟ هل هناك ما هو أشد خطرا على أمن مصر من " الترخص " فى بناء أجيال هذا البلد ؟ هل هناك ما هو أشد خطرا من تسييد روح القهر بين المعلمين ، الذين لابد أن ينقلوا هذه الروح إلى أبنائنا فيخرجوا لنا أبنية بشرية تمتلئ رعبا وخوفا ، ويعيش الجبن فى قلوبها ؟ هل هناك ما هو أخطر على أمن بناء أبنائنا من شيوع الغش ؟ هل هناك ما هو أشد خطرا على أجيال المستقبل من تزييف الحقائق وتزيين الواقع بالوهم وزخرفته بالخيال ؟

إن التدهور المتتالى للتعليم فى مصر لهو أشد خطر يهدد أمنها القومى ، فالتعليم هو خط الدفاع الرئيسى فى بناء الأوطان ، وهو الصناعة الثقيلة الحقيقية التى تبنى البشر ، والبشر هم الذين ينتجون وهم الذين يدافعون فى الجيش عن أمن مصر ، فإذا اتسخرت هذه الأبنية ، أو تهششت ، كان الخطر العظيم على أمن البلاد .

هل يمكن أن ننسى تلك المقولة العظيمة التي وعيتها الحضارة الإسلامية ، والتي تشير إلى إجابة عن تساؤل عن كيفية تحصين البلاد ، ألا وهي : حصنها بالعدل ! فهل هناك عدل في التعليم المصرى القائم ؟ إن هناك ما لا يد وحصى من مظاهر عدم التكافؤ في فرص التعليم مما يحتاج منا إلى دراسة أخرى خاصة نرجو أن نقدمها مستقبلا إذى كان في العمر بقية .

ومن ناحية أخرى فإن الحكم على سلوك بالتطرف ، يعنى أن هناك مفهوما واضحا للتطرف ، فما هو ؟ إن التطرف هو خروج عن حد الاعتدال ، سواء بالغلو أو التهاون ، فالذى يقصر في أداء الفرائض الدينية ، والذى يحارب التدين ، هو متطرف كذلك ، إذا حكمنا المنهج العلمى وأصول المنطق في التعريف ، فهل نتعامل مع الذين يتعاملون المخدرات ، ويزنون ، ويقامرون ، ويشنون ، ويتهتكون ، من التلاميذ ومن المعلمين ، بالمنطق نفسه الذى نتعامل به من نصفيهم بالتطرف الدينى ؟

وإذا كان التطرف هو الخروج عن حد الاعتدال ، فهل نحن اتفقنا على هذا الحد ؟

كان د . محمد على محبوب ، عندما كان وزيرا للأوقاف قد دعا جمعا كبيرا من الكتاب والمفكرين والعلماء ، مسلمين وأقباط في أول التسعينات ، للاجتماع " للتفكير " حول قضية التطرف ، وكان لى شرف المشاركة فى هذا الجمع ، وعندما جئنا إلى محاولة الاتفاق على هذا الحد الوسطى المعتدل الذى يتيح لنا الحكم على مدى ودرجة السلوك المتطرف ، تعثرت المحاولة ، فهل نكتفى بتقارير أمنية ، الله وحده أعلم بأى دافع كتبت ، وبأى منطق سارت ، وبأى سبيل كانت ، للحكم على المدرسين بالتطرف أو عدمه ، وبالتالي إبقائهم فى المهنة أو استبعادهم ؟

إن أخطر ما يمكن أن نلمسه هنا أن الذى يسرق ، أو يقتل ، أو يزنئ ، أو يحرق ، أو غير هذا وذاك من تلك الجرائم لا يحكم عليه إلا بعد تحقيق ومواجهة ومحاكمة ، وتولى محامين أمر المناقشة والدفاع ، فكيف تعتمد الوزارة المسئولة عن بناء البشر على مجرد تقارير أمنية للحكم بالإعدام على قيام مدرسين بمهنة التدريس ؟

مرة أخرى لا نريد أحدا يزايد على وطنيتنا .. فقط ، نطالب بأن يتخلى وزير التربية عن هذا النهج البوليسى فى اختيار المعلمين وتشريدهم ، وليعتمد على النهج القانونى : التحقيق والمواجهة والمحاكمة قبل إصدار الحكم بالتشريد .

.....

كان من الضرورى لهذه السلسلة من المقالات عن فرعون التعليم فى مصر أن تنتهى

.. أما : لماذا ؟ وكيف ؟ فهذا هو موضوعنا هذه المرة ..

كنت جالسا أمام شاشة التلفاز أتابع تدايعيات حدث القرن ٠٠ هذا الهجوم المروع على واشنطن ونيويورك ، وأشاهد أمامى صوراً لأسراب الطائرات المتوحشة ، والأساطيل ، والمدمرات ، والصواريخ تستعد وتقلع إلى حيث يعلم الله ، وهى بالتأكيد بلدان إسلامية لينال المسلمون مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من الأهوال وخطر المآل ٠٠ كل ذلك وقلبي يكاد ينفطر ، وأنا أحسد أياما سود قادمة تتضاعل أمامها تلك المآسى التى كنا نشكو من تعرض المسلمين لها فى البوسنة والهرسك وألبانيا وكوسوفا والشيشان والسودان والعراق .

ثم إذا بدقات عنيفة سريعة متلاحقة على الباب ، فأسرع بفتحه لأرى أمامى كوكبة من رجال الشرطة الذين لم ينتظروا منى أن أسألهم عما يريدون ، إذ اندفع معظمهم إلى الداخل يقبلون كل ما فيه رأسا على عقب ، وآخرون يسألون : فين سعيد إسماعيل ، فلما أجبتهم بأننى هو إذا بالقيود توضع فى يدي ، وأنا أحاول أن أستفسر عما يحدث ، ولا مجيب ٠٠

أركبونى سيارة مساجين إلى جهة غير معلومة ، حيث عصبوا عيناى فلا أرى أين أكون ، وقذفوا بى فى زنزاة موحشة ، وفى الصباح ساقونى إلى مكتب لأفاجأ بهم بشعة لا تخطر على بال ، فكان من الطبيعى أن أنكرها جملة وتفصيلا ، فإذا بعصى وكرايبح تنهال على جسمى الضعيف فأصرخ بأعلى صوتى : هاتوا الورق والقلم وسوف أكتب معترفا بكل ما تريدون أن تتهمونى به حتى ولو اتهمتمونى بأننى من يقف وراء الهجوم المروع على الولايات المتحدة ٠٠

وظللت أصرخ بكل صوتى ، فإذا بصوت عال ينادى : سعيد ٠٠ سعيد !
كان صوت زوجتى توقظنى من كابوس مخيف ، حيث أغفلت عيناى وأنا جالس أشاهد توابع الهول الأمريكى الذى حدث ، ثم مقدمات الانتقام الرهيب الذى سوف يأتى .
فى الصباح التالى ، ذهبت إلى كليتى ٠٠ كان هناك ضيوف ، وتطرق الحديث إلى موضوع معين ، فإذا بأحد الزملاء يروى قصة أستاذ معار أراد البعض فى إحدى الجامعات العربية أن يتخلصوا منه ، فدبروا له مكيدة شيطانية .

كان جالسا فى مكتبه بالكلية يوما ، فإذا بطالبة تدخل عليه ، وما أن بدأ يسألها عما تريد ، إذا بها تمد يدها إلى قميصها من أعلى الكتف لتمزق جزءا منها وتقف على باب المكتب صارخة طالبة النجدة ، وهرع أناس إلى المكتب يسألون عما حدث ، فإذا بها تصرخ وتشكو من أن الأستاذ كان يتحرش بها جنسيا ويرادها عن نفسها وقاومت وكانت نتيجة المقاومة تمزق قميصها ، ولم يسأل أحد إن كان قميصها قد من دُبر أو من قُبل ، كما رأينا فى قصة يوسف عليه السلام .

فى لمح البصر ، انتشر الخبر فى كل مكان ، وفى ساعات كان الأمر بترحيله فوراً لبلده تسبقه الفضيحة ، وهو برئ منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب ! كان سيناف كثير من الأمور ، إلا هاذ الذى أتهم به !

اجتمع " الكابوس " الذى رأيتة فى اليوم السابق ، مع هذه القصة المفزعة ليشكلا معا أمرا داخليا : هتف بى : اتج سعد فقد هلك سعيد ! لايد أن تتوقف عن هذا الذى تكتبه عن فرعون التعليم فى مصر ٠٠٠

أقول الحق ، لقد أخذت تظن فى أذناى تلك العبارات المتعددة التى بدأت تتردد فى أجهزة الإعلام بأن هناك حملة ضخمة ، على مستوى العالم ، لتعقب الإرهابيين ، بكل ما يمكن تصوره أو لا يمكن ، من وسائل وأساليب ، لا عبر فترة قصيرة وإنما لفترة طويلة قد تمتد لسنوات ٠ وماذا فى ذلك ؟

إن فى ذلك الكثير ٠٠٠ فسوف تنتهز جهات كثيرة وأشخاص متعددون الفرصة لكى يوقعوا بمن ينظرون إليه أو إليهم باعتبارهم أعداء أو معيقين لهم ، أو حتى معارضين لأتلين لهم قناة ٠٠ إتها حمى الانتقام ، ذلك هو الشر المستطير الذى يمكن أن يجتاح العالم أجمع ، تماما كما تسقط القنبلة فى الحرب ، فتأخذ فى وجهها الصالح مع الطالح معا ٠

هنا ، طاف بخيالى خاطر مفزع عن أمر محتمل ، عندما تساءلت بينى وبين نفسى : أليس من الممكن أن يحدث بالفعل ؟ فإذا بالإجابة : ولم لا ؟ فما هذا الخاطر المحتمل حدوثه ؟

كثيرا ما أقوم بالاتصال بابنتى أو حفيدتى فى أمر من الأمور أو لمجرد السؤال والاطمئنان ، ولا تخلو مكالمة على وجه التقريب من أن تصدر منى كلمة هنا وكلمة هناك من باب الملاحظة والمداعبة من قبيل " يا حبيبتى " أو " يا حبيبة قلبى " أو " يا نور عينى " ، وخاصة لحفيدتى ٠٠

ثم إتنى فى الوقت نفسه ألقى عددا من المكالمات من باحثات يبحثن معى للمجستير أو الدكتوراه ، أو غيرهن من الباحثات ممن يطلبن رأيا ، فماذا لو دبر القوم مكيدة وساعدتهم الأجهزة التكنولوجية الحديثة ، وتم تركيب و " منتجة " لأحادىثى فتظهر مكالماتى فى صورة تجعلنى متهما بإقامة علاقات لا أخلاقية ، وتنتشر الصحف فى يوم من الأيام بغناوين مثيرة : الكشف عن أستاذ يستغل وظيفته فى الإيقاع بطالبات !؟

هذا الخاطر أصابنى برعب هز كياتى هزا إلى درجة تبخرت عندها كل هذه المظاهر التى طالما تباهت بها ، على اعتبار أنها مؤشر على شجاعة تدفعنى إلى أن أكتب كلمة الحق دون أن يقف أمام قلمى خوف من بطش ، أو رغبة فى مغنم ، فإذا بى وكأنتى

أكتشف أنني قد بلغت من العمر أرذله ، ووهن العظم منى واشتعل الرأس شييا ، وأننى أعانى من كذا وكذا من الأمراض ، وإذا بالقلم يرتعش فى يدى ، وويل لكاتب يكتب والقلم يرتعش فى يده !

وبدأت مبررات متعددة تتضافر معا لتقتنعنى بالكف . .

منها ، أن الأمة الإسلامية مقبلة على مستقبل مفزع وأخطار مهولة ، وبالتالي تبرز قضايا كبرى هى التى يجب أن تستقطب الاهتمام والتفكير والكتابة ، وهذه القضايا الكبرى التى تتعلق بمستقبل الأمة أهم وأولى كثيرا من فرعون التعليم فى مصر .
ومنها ، أن الكتابة الناقدة فى البلدان المتخلفة ليست من الوسائل المعترف بها للتغيير والتجديد ، فهى إما أن لا يسمح بها أصلا ، وإما أن يسمح بها من أجل وظيفة واحدة لا ينبغى أن تتعدها ألا وهى "التنفيس" ، وفقا لشعار يقول : دعهم يقولون ما يريدون ، ودعنا نحن نفعل أيضا ما نريد !

ومنها ، أن الكتابة الناقدة للمسئول فى مصر ، هى مما يعزز مكانته ويقوى مركزه ، ذلك أن النهج العسكرى السائد فى بلادنا هو أن إدارة مجتمع ، مثلها مثل معركة عسكرية ، فإذا شاع بين الناس أن الهجوم سيأتى من الشرق فلا بد من تغيير الخطط ليجئ من الغرب ، وإذا تحادث الناس عن سوء شخص وتوقعوا بناء على هذا أن يذهب ، فلا بد من مفاجاتهم والإبقاء عليه !

* سلسلة مقالات نشرت بأفاق عربية فى الفترة من ٦/١٤ إلى ٤/١٠/٢٠٠١

ولا عزاء للفقراء !

فى فترة سابقة بدأ الأمر وكان هناك عداء لمن يملك من المال ما يضمه إلى زمرة الأغنياء ، ولم يكن هذا الاتجاه عادلا ، ذلك أن من يكسب مالا بكد واجتهاد ، ولا تشوب مكاسبه شبهات استغلال ونصب وسرقة وغش ، ويقوم بما لا بد عليه من التزامات تجاه أمته ، لا تثير عليه .

ثم بدأ لأولى الأمر الجدد منذ السبعينيات أن يعيدوا للأغنياء دولتهم : يتاجرون ويكسبون ويغامرون ، ولم يكن هذا الاتجاه أيضا عادلا بالصورة التى تم بها فى بلد غالبا ما يقع ما يقرب من ٤٠٪ من أبنائه تحت خط الفقر ، فضلا عما استطاع الأغنياء أن يفعلوه بأن يقتربوا أكثر من اللازم من مواقع القرار ليصبح عدد غير قليل من القرارات يصب فى مصلحتهم . فضلا عن ذلك فإن عددا غير قليل من أغنياء اليوم إنما هم أصحاب غنى زائف ، لم تجئ ثرواتهم نتيجة توالد ذاتى من أصول الثروة ، وإنما أخذوا معظم ثرواتهم اقتراضا من البنوك ، أى من ودائع الجمهرة الكبرى من متوسطى الحال ، وبسطاتها ، بدءا ممن يودع بضع عشرات من الجنيهات إلى من يودع بضع آلاف . أضف إلى هذا وذاك ، فإن كثرة من أغنياء اليوم لا تقوم بالعديد من التزاماتهم تجاه أبناء أمتهم ، سواء بدفع ما عليهم من الضرائب الحقيقية ، أو القيام بمشروعات اجتماعية تخدم الفقراء ولا تمتص دماءهم . والقارئ لاشك قد مل قراءة أخبار متكررة عن هاربين بمئات الملايين من الجنيهات ليصب ناتج العرق المصرى ودماء أبنائنا فى مجتمعات أخرى بالخارج .

وكانت مجانية التعليم التى بدأت بالتعليم الابتدائى فى عهد وزارة الوفد عام ١٩٤٤ ، ثم امتدت إلى التعليم الثانوى ، أيضا فى عهد وزارة الوفد عام ١٩٥٠ ، ثم شملت التعليم العالى فى عهد الثورة عام ١٩٦٢ ، مكسبا ضخما لأبناء الفقراء أتاح لمئات الألاف منهم أن يواصلوا التعلم إلى آخر مدى ، ويؤهلهم هذا أن يشاركوا فى قيادة مواقع الخدمة والإنتاج .

ويذكر كاتب هذه السطور ببعض الفخر أنه أول من أطلق صيحة تحذير بمقال هام نشرته مجلة المصور فى أوائل عام ١٩٧١ من أننا - فى التطبيق - أسأنا إلى هذا المبدأ العظيم ، ألا وهو مجانية التعليم ، وكانت المجانية قد أصبحت من " المقدسات " التى يخشى الجميع الاقتراب منها . وكالعادة ، ذهبت صيحتنا أدرج الرياح ، واستمر مسلسل تدهور العملية التعليمية متواصلا حتى كتابة هذه السطور .

لم يُعمل الكثيرون فكرهم وعقولهم فى الأسباب الحقيقية ، وهى كثيرة ومتعددة ، لكنهم صبوا جام غضبهم على المجانية وقدموها كبش فداء على أساس أنها هى سبب تدهور التعليم ، وكان هذا افتراء وتضليلا ، ذلك أن الكم الأكبر من المستفيدين من المجانية كانوا فى التعليم الابتدائى ، ثم الثانوى ، وهذا وذاك كانا على يد حكومة الوفد التى كانت تعرف دائما بأنها حكومة الأغلبية وحكومة الشعب ، كما قدمنا ، ولم يشكو أحد ، ولم يدع أحد ساعتها أنها تؤدى أو أدت إلى تدهور التعليم ، وكانت النعمة السائدة لدى بعض الأغنياء ، هى أن المجانية سوف تجعل " ولاد الجارية " يجلسون بجوار " ولاد الحرة " ، واحتل مهاجموا المجانية فى السنوات الأخيرة موقع أبناء يعقوب تجاه مبدأ المجانية الذين سولت لهم أنفسهم تغيبب أخاهم يوسف فى غيابات الجب لولا أن التقطه بعض السيارة " وجأعوا على قميصه بدم كذب " ! وهرب المذنب الحقيقى ، الذى لا أريد أن أسميه ، فهو ليس فردا من الأفراد ، وإنما المذنب جملة من العلل والأسباب ، معظمها " حكومى " .

وتهياً المسرح تماما للهجوم على مجانية التعليم . . .

كانت العقبة أمام المهاجمين ، هى أن الدستور نص على هذه المجانية ، ومن هنا تفتقت أذهان أعداء تعليم الفقراء عن مسالك متعددة للالتفاف حول هذه المجانية حتى تتحول إلى خرافة من حيث الواقع ، وإن ظلت قائمة على صفحات الورق ، وجاء الهجوم الكبير تدريجيا ، وعبر مسالك وشعب متعددة ، من جهات مختلفة ، حتى لا يتنبه أصحاب المصلحة من الفقراء وأنصارهم إلى ما يببب لهم ، وأخذوا يسقون تعليم الفقراء السم نقطة نقطة حتى أصبح الآن بحاجة إلى أن تكتب له شهادة وفاة ، ويقام له العزاء !

فماذا كانت هذه المسالك والشعب للهجوم على تعليم الفقراء ؟

- بدأت مدارس اللغات فى الظهور على أساس أن مثلها مثل المستشفيات الخاصة فى مقابل المستشفيات الحكومية كالدرداش وقصر العينى ، على سبيل المثال ، وأوتيبسات النقل العام والسيارات الخاصة . . . وهكذا ، ووفق هذا المنطق لم تجد اعتراضا ، فمن كان يشكو من مستوى الخدمة فى الدرداش أو قصر العينى ، كان يتحمل التكلفة المالية ويذهب طواعية إلى العيادة الخاصة أو المستشفى الخاص . وبدأت هذه المدارس ببضعة مئات قليلة من الجنهيات ، ثم أخذت توالى الصعود لتصبح بضعة آلاف . ولأن الارتفاع تدريجى ، كان الناس " ييلعونه " ولا يحتجون .

- وإذا كان ظهور مدارس اللغات أمرا وجد له منطق ، إلا أن هذا المنطق بدأ يتعرى على يد الحكومة ، ذلك أنها بدأت عام ١٩٧٩ تدخل ساحة الملعب . . . التعليم بمصروفات ، وعندما نقول تعليم بمصروفات تتزايد شيئا فشيئا ، فإتاما نقول أنه تعليم الأغنياء .

واستخدمت الحكومة لعبة ذكية خبيثة ، لكننا كشفناها فى مقال لنا احتل عنوانا " منشيتا " على رأس الصفحة الأولى من جريدة الأهالى عام ١٩٨٧ ، وكالعادة ، ذهب صرختنا أدراج الرياح . ادعت الحكومة أنها سوف تقدم مجموعة من الخدمات المتميزة والتي تزيد عما يقدم للتلاميذ ، مما يبيح لها أن تمد يدها للناس طالبة المزيد من دفع الأموال لتعليم أبنائهم ، واقتطعت عددا من مدارس الدولة المجانية ، وسمتها " المدارس التجريبية " ، وتبحث عن " التجريب التربوى " فيها ، فلا تجد ، ولو فرض أنها تقدم خدمات فى هذه المدارس ، فهى خدمات " أساسية " غابت عن المدارس الحكومية ، فهى إذن عملية " نصب " و " خداع " تمت - وما زالت - على يد الحكومة ، تنصب على من ؟ وتخدع من ؟ تنصب على جماهير الناس التي جاءت لتخدمهم . . . وتخدع أبناء الأمة الذين استأنوها على مستقبل فلذات أكبادهم . . . وأخذت هذه النوعية تنتشر بالتدريج . . . تنشأ من أموال الميزانية العامة للدولة . . . أموال الناس ، ثم تطلب من هؤلاء الناس أن يدفعوا الثمن !!

- وفى المدارس العامة المجانية ، كانت رسوم القيد بضع جنيهات لا تزيد على أصابع اليد الواحدة ، ثم أخذت تتصاعد لتصل الآن إلى بضع عشرات من الجنيهات . بطبيعة الحال سوف يبادر من يقول أن هذا أمر طبيعي مع توالى ارتفاع الأسعار وانخفاض قيمة الجنيه ، لكننا نرد أيضا من خلال نفس المنطق ، فنقول : إذا كانت " القيمة المادية " فى تصاعد بحكم التطور والتغير ، ألا تخضع " القيمة التربوية " لنفس المنطق فتتزايد وترتفع ؟ نعيب على الولايات المتحدة " ازدواج المعايير " وحكومتنا الرشيدة تتفوق على الولايات المتحدة فتطلب من المواطنين أن يتعاملوا معها بمنطق مغاير تماما للمنطق الذى تتعامل به هى معهم ، وإلا فليقل لنا أى إنسان : لماذا تنخفض قيمة العملية التعليمية من عام إلى آخر ، إذا نحينا جانبا التصريحات الرسمية والكتابات الرسمية ، حيث جميعنا يعلم علم اليقين أن الوزراء يكتبون عادة وكان قارئهم الوحيد وسامعهم المنفرد هو السيد رئيس الجمهورية ، كسبا لرضاه ، وحرصا على الاستمرار ، حتى ولو كان ذلك عن طريق زخرفة الواقع بالوهم وتزيينه بالخيال ، ولا يكتبون ويتحدثون ليقرأ لهم ويستمتع ، آباء وأمهات الملايين من أبناء هذا البلد الذين لا يملكون أمر تنصيب هذا أو ذاك ، ولا عزل هذا أو ذاك ، فلم يعملون حسابا لهم !؟

- ثم نشهد تواليا فى انحدار الخدمة التعليمية فى المدارس الحكومية ، وتباطؤا فى نمو الدخل المادى للمعلمين عن الطريق الرسمى ، بحيث تتسع الهوة يوما بعد يوم بين المبلغ المدفوع ، وتكلفة المعيشة المطلوبة ، وكان من الطبيعي - مع الأسف - أن نرى تضائلا فى الجهد المبذول من المعلمين حتى يتوافق هذا الجهد مع ما تدفعه لهم الدولة ،

وتكون النتيجة الطبيعية هي أن يندفع ألوف من الناس نحو طلب الخدمة التعليمية في السوق السوداء . . عن طريق الدروس الخصوصية ، تلك الدروس التي تقول مصادر رسمية أن ما ينفق فيها يكاد أن يقرب ما تنفقه الدولة على تعليم الملايين من أبناء الناس . وليس صحيحا أن عدد من يتلقون الدروس الخصوصية قليل ، والذين لا يتلقونها ، كثير منهم يعجز عن دفع نفقاتها الباهظة . فكأن الآباء والأمهات إذن أصبحوا يدفعون مئات من الجنيهات شهريا ، تحت مظلة دستور يقول أن التعليم مجاني !

- وكما دخلت الدولة ساحة ملعب المدارس الخاصة عن طريق التوسع في إنشاء مدارس تدعى مع الأسف أنها " تجريبية " سال لعباها إلى ناتج الدروس الخصوصية المالي ، فلم لا تلعب اللعبة نفسها ؟ ولا يهم المبرر ، فالسوفسطيون لم يكونوا فقط فئة شهدتها أثينا القديمة قبل الميلاد ، فأحفادهم مستمرين وجاهزون لتقديم المبررات والدواعي ، وأجهزة الرأي والتشريع مفتوحة لهم على مصراعها ليدسوا السم في العسل ، فظهر ما يسمى بدروس التقوية والتي يوزع دخلها بنسب متفاوتة على كافة العاملين بالجهاز التعليمي من أدناه إلى أعلاه ، ولسنا هنا في معرض مناقشة الحجج الواهية التي تستند إليها هذه النوعية من الدروس الخصوصية التي تقوم بها الدولة .

- فإذا صعدت في سلم التعليم إلى " العلالى " فسوف تجد مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فإذا كان من الصعب الهجوم على تعلم الفقراء في التعليم قبل الجامعي ، فما هنا المسألة تبدو سهلة ، حيث بدأ الهجوم على تعليم الفقراء بأساليب أكثر ضراوة ، تحتاج وحدها إلى حديث مستقل ، ويكفي هنا إلى عدد من أساليب الهجوم: = فقد أصبحت الدراسات العليا جميعها بمصروفات على أساس أن هذا " ترف " لا ينبغي أن تتحمل الدولة تكلفته ، مع أن الدراسات العليا تقوم على البحث العلمي ، فهل يعد البحث العلمي ترفا لا يستحق أن تتكلفه الدولة ؟ وجموع الزاحفين على الدراسات العليا في السنوات الأخيرة هم في أغلب الأحوال يقومون بنشاط يصب في مصلحة النظام الاجتماعي ، فهم لا يجدون عملا بأجر إلا بعد سنوات من تخرجهم ، وبدلا من أن يجلسوا في منازلهم مما قد يسبب قلقا اجتماعيا ، يستثمرون جهودهم ووقتهم في المزيد من التعليم ، ولو كانت الدولة بعيدة النظر لنظرت إلى ما ينفق عليهم على اعتبار أنه صورة من صور التأمين ضد البطالة ، ودعما لمسيرة البحث العلمي ورفعا لمستوى التعليم .

= ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فكثيرا ما يأتيني هذا الباحث أو ذاك ممن يعملون معي للحصول على الماجستير أو الدكتوراه شاكيا من أنه لا يستطيع أن يحقق ما أطلبه منه بالاطلاع على كذا وكذا ، لأن مكتبات الجامعات والكليات بدأت في تنفيذ بدعة جديدة وهي ضرورة أن يدفع من يريد الاطلاع " رسوما " مالية ، متوهمين أن هذه النوعية من

الطلاب ، يعملون ، لكن ليس كل من يعمل لديه فائض من الراتب ، ومعظم من يواصلون الدراسات العليا في كليات التربية على سبيل المثال ليسوا ممن يتعاطون الدروس الخصوصية ، فمتعاطوها لا وقت عندهم لهذه الدراسات ، وبالتالي فالجمهرة الكبرى من زبائن الدراسات العليا هم من فقراء العاملين ، أو قل من " البلوريتاريا البيضاء الأفندية " = وكل ما يمكن قوله عن الدروس الخصوصية ، فلنضربه في عشرة ، تكون النتيجة هي حال الدروس الخصوصية التي زحفت على الجامعات ، وبدأت بكليات الطب ، ثم الهندسة ، فغيرهما ، حتى أصبحت وباء يكلف الآباء والأمهات آلافًا من الجنيهات .

= وحدث ولا حرج أيضا عن صور التحايل الحكومي ، فيما يسمى " بالانتساب الموجه " ، ثم " التعليم المفتوح " ، ولو كانت المسألة هي بالفعل تجديدا وتطويرا في التعليم ، لصفقتا وهتفتنا لكن ما يتم هو صورة أخرى من التعليم التقليدي مع بعض الرتوش .

= والدولة توقفت عن إنشاء جامعات جديدة منذ سنوات ، في الوقت الذي تتزايد فيها أعداد الطلاب الحاصلين على الثانوية العامة بحكم الزيادة المستمرة في السكان ، وتزايد الطموح الاجتماعي ، ومع ذلك تزيد الدولة أعداد الطلاب المقبولين في الجامعات القائمة ، في حدود نفس الأماكن ، ونفس الإمكانيات ، فتتدهور الخدمة التعليمية ، وهنا تبرز الدعوة إلى الجامعات الخاصة وتعرف طريقها إلى التنفيذ ، ويسفر التطبيق العملي عن أن ما يتم فيها من تعليم هو صورة أخرى من التعليم الذي يتم في الجامعات الحكومية ، بعد ما قيل لنا أنها ستقدم نوعيات جديدة من التعليم وتقتحم آفاقا جديدة منه ، ومصروفاتها كما هو معروف أحيانا ما تزيد على العشرين ألفا من الجنيهات .

ويأبى السيد رئيس الوزراء إلا أن يقدم هدية العمر إلى ملايين الفقراء في مطلع الألفية الثالثة ، جزاء لهم على تحملهم التدهور المستمر لقيمة الجنيه المصري ، والارتفاع المتواصل للأسعار ، ومليارات أموالهم التي سرقت وهُربت إلى الخارج ، وعجز الملايين من الشباب عن الزواج لقلّة ذات اليد ٠٠ إلى آخر هذه القائمة الطويلة من صور المعاناة ٠٠ وكادت المكافأة هي أن الدولة سوف تنشئ مجموعة كبيرة من المدارس " المتميزة " (بنفس منطق المدارس التجريبية) لمن يدفعون تكلفة التعليم الكبيرة . والسيناريو الذي سوف يحدث هو ما اتتهجته الحكومة مع رغيف الخبز ، فقد كانت تخرج رغيفا " مميزا " أعلى سعرا من الرغيف العادي ، وبعد فترة ، يتعود الناس السعر العالي ، فيختفى الرغيف العادي ويبقى المميز ، الذي يفقد تميزه بعد فترة ليصبح عاديا ، فيبرز رغيف جديد " متميز " بسعر أعلى ، ويتواصل السيناريو ٠٠٠

لا علاقة للتربية بالثقافة !

لا شك أن كل من يعمل فى حقل العلوم التربوية لابد أن يشعر بقدر كبير من الدهشة المصحوبة بالاستنكار المبدئى حال أن تقع عيناه على عنوان المقال ، وأنا أشارك القارئ فى هذا رغم أنى كاتب المقال ، فالحق أنى ما كتبت العنوان عن إيمان و يقين وإنما عن استنكار وإدانة . إنها دعوى رفعت علينا من داخل المجلس الأعلى للثقافة ، فكان لابد لنا من تقديم عريضة دفاع ، ومن حسن الحظ أننى لا أعلم من أى مصدر صدرت الدعوى ، حتى لا أقع فى حرج الإيحاء بأن المقال موجه إلى هذا أو ذاك من الأشخاص ، فهذا أمر بعيد عن ديدنى فى الكتابة العامة . وعريضة الدفاع التى نتقدم بها تعكس رأى الشخصى لكاتب هذه السطور ، وبالتالي فنحن لا نقدمها نيابة عن الجماعة العلمية التربوية ، فهى تغط فى نوم عميق كثيرا ولا تستيقظ إلا للتقاتل الداخلى ، فإذا ما أنتهكت لها ثوابت ، أو جيش للعدوان عليها ، أصابتها البلادة واستسلمت لحال من اللامبالاة مخزية حقا ، مؤسفة دوما .

منذ أن تفتحت عيناي على الصفحات الأولى من العلوم التربوية فى أواخر الخمسينيات ، مثل أى دارس فى أى مكان فى العالم للعلوم التربوية ، كان ألف باء هذه العلوم فكرة بعينها ، ما فتىء كل أستاذ يردها أمامنا أيا كان العلم التربوى الذى يدرسه لنا ، طوال العام الدراسى ، كان من يعلموننا هذا ، شفاهة وكتابة ، رواد كبار مثل إسماعيل القباتى ، وعبد العزيز القوصى ، ومحمد فؤاد جلال ، وعبد العزيز السيد ، وأبو الفتوح رضوان وغيرهم من مختلف الأجيال . وما قرأنا كتابا إلا ونجد هذه الفكرة ، حتى أصبحنا ننظر إليها كما ينظر المسلم العابد - مثلا - إلى قراءة سورة الفاتحة وهو يؤدى صلاحه خمس مرات يوميا ، هذه الفكرة هى أن بين التربية والثقافة عروة وثقى إلى الدرجة التى وصلت بمعظم علماء التربية إلى التأكيد على أن التربية لا وجود لها بغير ثقافة وأن الثقافة لا كيان لها بغير تربية !! كيف ؟ هذا ما نرجو توضيحه بإيجاز شديد . . .

إن ما يكون مجتمعا إنسانيا ليس هو هذه الذوات الآدمية الجسمية التى تقرأى أمامنا فى صورة لون وطول و عرض وشعر وأيد وأرجل . . . وهكذا ، وإنما هو ما يحمله هؤلاء من " ثقافة " ، تلك التى تعنى مجمل ما يصنعه البشر فى سياق تفاعلهم مع البيئتين الطبيعية والاجتماعية عبر سياق زمنى ، سواء كان هذا المصنوع أفكارا أو أنظمة أو اتجاهات أو أدوات وأجهزة أو منشآت ، ومن هنا فنحن نميز بين الشعوب ،

فنقول هذا إنجليزي ، وذاك فرنسي ، هذا روسي وذاك عربي . . . وهكذا ، بناء على ما يحمله كل منهم من ثقافة .

والمجتمعات يفنى أفرادها واحدا بعد آخر ، وجيلا بعد جيل ، لكن المجتمع يظل باقيا ، طالما أن " ثقافته " استمرت في الوجود ، لافى صورة مكتوبة أو منقوشة أو منحوتة ، وإنما فى صورة حياة تُعاش ، وسلوك ينظم العلاقات بين الأفراد . لقد " مات " المجتمع الرومانى ، ومن قبله المجتمع الإغريقى ، وغيرهما من مجتمعات الحضارات القديمة ، رغم أن أحفادهم البشر ما زالوا يتناسلون إلى يومنا هذا ، لأن ثقافة كل من المجتمعين انحسرت عن مسرح الحياة وقبعت هناك على الأرفف كتبنا ، وفى المعابد والشوارع آثارا مرئية ولمموسة .

وإذا كان كل مجتمع يحرص على أن يستمر بيولوجيا عن طريق التناسل ، فإنه يحرص كذلك على أن يستمر كجماعة إنسانية عن طريق التواصل الثقافى بين أجياله المختلفة ، فكيف يتم هذا ؟ بأن ينقل جيل الكبار ما قد عرفوه وتوصلوا إليه وأبدعوه من ثقافة إلى الأجيال الجديدة . هذه العملية التى حرص كل مجتمع أن ينهض بها للتواصل الثقافى بين أجياله ، هى التى نسميها بالعملية التربوية ، كما يقوم بها كل كبير تجاه من هو أصغر منه أو يقوم بها من يعلم تجاه من لا يعلم ، بغض النظر عن السن والموقع .

ولعل هذا ما دعا فيلسوف البراجماتية الأمريكى الشهير " جون ديوى " أن يلفت النظر إلى هذا التشابه بين الحروف الأولى ، فى الإنجليزية بين ثلاث كلمات ، وهى : **Community - Common Communication** ، فما يجعل التجمع البشرى جماعة إنسانية ، هو ما يربط بين أفرادها مما هو " عام " - أى ثقافة - ، ولا يمكن أن تشيع هذه الثقافة بين أفراد الأمة لتكون منها جماعة إلا عن طريق عملية اتصال ، تلك التى نسميها " تربية " ، لتكون النتيجة هى كما يلى ، لا جماعة إنسانية بغير ثقافة تربط بين أفرادها ، ولا يمكن لهذه الثقافة أن تقوم بما هو منوط بها بغير تربية .

ومن هذا المنطلق أيضا ابتكرت الجماعة الإنسانية " المدرسة " ، عندما أخذ الإرث الثقافى فى التزايد وفى التنوع ، بدرجة احتاج معها الأمر إلى وقت مكد ، ومكان معين ، ومنهج مقصود ، ومعلم متخصص ، متفرغ كى تتم عملية تعليم الثقافة ، دون أن يعنى هذا التخلي عن جهود كل القوى والمؤسسات والأفراد الآخرين بشأن استمرار المساهمة فى العملية التربوية .

لكن الأمر لم يكن ليوقف عن حد " النقل " وإلا جمدت الثقافة ، فهناك جانبان آخران ، أحدهما " التثاقف " بين مختلف المجتمعات عن طريق تبادل الخبرة التعليمية ، زيارة أو

مؤتمرا أو بعثة أو قراءة أو مشاهدة ، والجانب الآخر هو جانب " التطوير " لعناصر الثقافة المختلفة . وإذا كانت مهمة " النقل الثقافى " تتم عن طريق مدارس التعليم العام ، وقوى المجتمع الأخرى المربية ، فإن مهمة التطوير أصبحت تتم عن طريق التعليم العالى ، وخاصة الدراسات العليا ومراكز البحث المختلفة ، بينما مهمة التثاقف بين الأمم لا تقتصر على مرحلة بعينها .

بهذه الصورة تأكدت هذه العروة الوثقى بين " المجتمع الإنسانى " وبين " الثقافة " وبين " التربية " . ومنذ أن أنشئ فى مصر مجلس أعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ثم المجلس الأعلى للثقافة ، توافر مثل هذا الوعى بهذه العروة الوثقى بين التربية والثقافة ، فكان هناك حرص على أن تكون هناك دائما لجنة تضم كلا من التربية وعلم النفس ، حتى جاء التشكيل الأخير ، فإذا بالتربية تختفى من لجان المجلس ، وكأنها ليست من " الثقافة " ، ويقتصر الأمر على علم النفس ، مع أنه يشكل أصلا من الأصول التى تقوم عليها التربية .

الحق أنه لم يصلنى حتى الآن " مبرر " هذا الذى تم ، بحيث يمكن لى أن أناقشه ، ولكن يبدو أنه قد رُوى أنه ما دام هناك مجلس قومى للتعليم ، فلا ضرورة كى تحتل التربية مكاتها بين لجان المجلس الأعلى ، مع أن هناك مجلسا قوميا للثقافة كذلك ، فهل يُلغى المجلس الأعلى ما دام هذا المجلس قائما ؟

إن كل أصحاب تخصص لديهم الكثير من الحثيات التى يمكن أن يستندوا إليها فى القول بأن هذا التخصص هام ولا غنى عنه ، ومن ثم فلا يصح ولا يجوز أن يكون الحكم على تخصص صادر من تخصص آخر وإلا فسوف ينشأ تراشق فى الإفتاءات المتضاربة . إن هناك كثيرين جدا يقولون أننا فى عصر لم يعد يعتبر " الشعر " - مثلا - مسألة جوهرية تختص بها لجنة ، لكننا لا نسمع لهذه الصيحات ، رغم كثرتها ، بل يمكن أن نستكرها ، لأن النقاد والشعراء هم الذين يفتون فى مدى حاجتنا إلى الشعر ، فلماذا أفتى هذا أو ذاك ، من غير علماء التربية ، بأن التربية لا علاقة لها بالثقافة فتم استبعاد التربية من لجان المجلس ؟ !

* الأهرام فى ١٩/١١/١٩٩٩